اقرأ

محمد لبيب البوهي

الوجودية ... والإسلام

دار المعارف بمصر

الوجودية ... والإسلام

محمد لبيب البوهي

الوجودية ... والإسلام

اقرأ ٢٠٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٥ – يناير سنة ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

مقدمة

ذهب الناس فى شأن الوجودية مذاهب شتى — واختلفوا كثيراً فى تقديرها — فقال قائلون مبدأ يهدف إلى ممارسة الحرية الفردية فى أوسع نطاق — وقال آخرون بل كفر بيّن وإباحية.

وقد أجاب الأستاذ توفيق الحكيم حين سأله سائل: عن الوجودية وما يماثلها من المذاهب.. وهل انتهى الأمر بها إلى الاندماج فى أدبنا فأصبحت ذات أثر فيما يصدر عن الكاتبين من أدب وفن ؟! أم أن أمرها لا يعدو كتابات دبجها بعض الذين اطلعوا على بعض خصائص هذه المذاهب؟

فكان مما أجاب به الكاتب الفيلسوف: أن رواج هذه المذاهب الأجنبية قد يكون راجعاً إلى الكسل العقلى؛ فبعض شبابنا يكتفى بارتداء ما جاء مصنوعاً «جاهزاً» من بلاد أخرى كما يشغف شغفاً شديداً بأحدث ما يرد إلينا من «موضات» الأزياء والأفكار، فإذا وصلنا يوماً إلى أن ننشئ بأنفسنا مذاهب ونظريات أدبية وفنية مستمدة من صميم تفكيرنا الذاتى، ومن ظروف مجتمعنا وعقائدنا فإن ذلك يكون هو الاتجاه الصحيح

الذى ينم عن نشاط عقلى ، ولم يكتف بالتلقى السلبى عن الخارج ، بل تخطاه إلى الإنشاء الإيجابى ، ومن الخير أن نذكر دائماً بأن ضعف الثقافة القومية والتأثر دائماً بما يرد إلينا من نظريات وفلسفات فجة كل ذلك له خطره لأنه سينشئ جيلا ينظر إلى تراثه القومى وإلى دينه وربما إلى لغته وثقافته بنفس النظرة التى ينظر بها إلينا أولئك الذين يريدون لنا عن تراثنا تحويلا ونحن نجتاز فترة من التاريخ فيها كثير من الذين يتربصون بنا . ويريدون أن يغزونا من الداخل بمثل هذه المذاهب . فمن واجبنا اليقظة وأن نحرص فى هذه الفترة بالذات على تغذية شعلة الحماس الوطنى . وأن نحاول أن نحميها من هذه الدسائس الفكرية التى تحاول أن توهنها .

محمد لبيب البوهى

أضواء على الوجودية

عندما يريد المهندس أن يقيم عمارة فإنه يتخيل أولا الوضع التصميمى الذى ستكون عليه تلك العمارة . . ارتفاعها ، عدد طوابقها ، أحجام حجراتها ، ألوانها ، نوع زجاجها ، إلى كل ما يتصل بها حتى الأشياء الكمالية فيها ، من بروز ونقوش وغير ذلك ، مما يجعل العمارة قائمة فى ذهنه صورة متكاملة يضعها بعد ذلك على الورق ثم ينقلها تنفيذياً إلى الطبيعة .

هذه الفكرة عن العمارة هى صورتها . . تصميمها للوضع الذى ستصير إليه بعد وجودها ثم إن كينونة الشىء هى وجوده ، بينما الفكرة التى أقيم على مثالها هى الصورة أو المثال وبين هذين الأمرين .. الصورة والكينونة تذهب الفلسفة وتجىء .

وقد أجمع كثير من الفلاسفة على أن الصورة تسبق الوجود وأن وجود الشىء دليل على وجود مثالى تصورى له سابق عليه .

واستدل كثير من الفلاسفة من ذلك على وجود الله إذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور لأنه هو الذى ينشئ الكائن على هذه الصورة التى وضعها .

وغالباً ما يأتى الوجود أقل كمالا من الصورة التى تفقد بعض بهائها فى عملية الإخراج وفى تحويل الفكرة إلى عمل، ولذلك ذهب كثير من المفكرين إلى أن جهاد الإنسان وسعيه يدوران حول تكميل نفسه حتى يصبح مطابقاً للصورة الإنسانية المثالية التى صور عليها الله الإنسان الكامل .

* * *

ولكن الفلسفة الوجودية تقوم على عكس ذلك فهى لا ترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود ، ومن ذلك ترى أنها تفقد ميزة المرونة . ذلك أن الفلسفة التى تجعل الوجود قائماً على صورة مثالية ، تجعل للمشاكل حلولا لأن الحل هو الرجوع إلى الأصل ، ومحاولة العودة إلى الصورة المثالية للشىء الكائن إذا حدث تحول أو انحراف عن طريق السير نحو استكمال الكائن .

فالوجودية لا تربط الإنسان بغير شخصه : ذاته . . . وجوده ، لا تربطه بفكرة مثالية سابقة أو تقيم له صورة للإنسان الكامل أو الفاضل يجاهد أن يحققها فى نفسه ، فهى بذلك تنحرف عن طريق الفلسفة المثالية ، وعن طريق الأديان كلها إذ تنهض تلك الأديان على أساس التسامى الدائم بالإنسان

إلى المثالية .. إلى صورة الله .

ولئن كان كيركجارد هو أول من ركز فلسفته حول ذلك الاتجاه ، فقد تلاه فلاسفة آخرون لم يقيموا وزناً كبيراً أو صغيراً على تفاوت بينهم للقيم الإنسانية المثالية التى تقول بوجود مثل كامل سابق على الوجود فلا ارتباط عندهم بين الإنسان من حيث هو كائن فعلا وبين الصورة الأصلية للإنسان المثالى .

ولا ريب أن فصل هذا الارتباط يكسب الإنسان اضطراباً وقلقاً . لأنه لا يربط وجوده إلى أصول ثابتة ولا يلتزم طريقاً مطروقاً كالسيارة التى تنطلق دون أن تسير فى طريق معلوم ولا صلة تربطها بالسيارات الأخرى التى تنطلق فى قافلة الحياة ، إنها قد تتشابك وقد تتصادم وقد يحطم بعضها بعضاً دون أن تفكر فى تعديل سيرها .

فالفلسفة الوجودية هى فلسفة الذات الإنسانية المتفردة دون ارتباط بغيرها من الذوات . . . وهى فى واقع الأمر ليست فلسفة ولكننا لا نجد اسماً فى الواقع يمكن أن يعبر تماماً عنها فنستعير لها كلمة الفلسفة

إذ الفلسفة لابد أن تنتهى إلى نتيجة ولكن الوجودية لا تنتهى إلى شىء فهى لا توقد شمعة ولا تمهد طريقاً ولا تشير

إلى أى كائن آخر سوى الإنسان ذاته .

وليس المعنى الإنسانى الشامل ، وإنما الإنسان كفرد ، إنه هو مشكلة نفسه كما قال كيركجارد الزعيم الأول للوجودية الذى ترجم مشاعره الخاصة وجمع آلام تجاربه وصبها فى بوتقة أسماها الوجودية فهى إذن معاناة ذاتية عاناها كيركجارد .

ولما كان كل إنسان يختلف كثيراً عن سواه فإن الاتجاه الوجودى لفرد ما سيختلف عنه بالقياس إلى فرد آخر ، ولذلك فإنك لا تستطيع أن تسمى مجموعة هذه الاتجاهات فلسفة أو مذهب

والوجودية تجادل عن نفسها فتقول إنها لا تقبل توجيهاً يأتى من خارج الذات ، وهو جدل عقيم وغير منطقى لأن الطبيعة الإنسانية متشابهة فما يصلح به الفرد يصلح للمجموع إلا فى حالات شاذة نادرة قد تحتاج علاجاً خاصاً ولكنها لا تغير القاعدة .

كما أن الفرد لا يمكنه قيادة نفسه قيادة مستقلة تمام الاستقلال عن الآخرين مهما أوتى من إمكانيات ذاتية ذات تجارب قوية وثقافة ممتازة ورأى حكيم ونظرات سديدة لأن الوجود الإنسانى مترابط بعضه مع بعض ولكن الفلاسفة

الوجوديون يرون أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يمكنه أن يكيف وجوده ، ويتصرف فى هذا الوجود الذاتى لكل فرد دون ارتباط بأى تصميم جماعى لحقيقة الإنسان كجنس ، وذلك بعكس ما ذهب إليه الفلاسفة الهادفون من أن الإنسان خلق على صورة مثالية غيبية ، هى التى تدعوه إلى الاقتراب منها والأديان تشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته .

فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للإنسان يجب عليه تحقيقها ليقترب من الكمال المطلق ، بل إنها تعارض فى ذلك أيضاً الأديان السماوية وغير السماوية على الإطلاق ، لذلك فالفرد الوجودى غير مكلف بالأخذ بتقليد سابق أو التمسك بعرف متبع أو النزول عند توجيهات سالفة لأنه مقطوع الصلة بكل ذلك ، وقد بدأت دنياه المستقلة المتفردة داخل قوقعته الذاتية منذ أحست هذه الذات بوجودها الأرضى فقط ولا شىء غير هذا ، وعليه وحده أن يختار وفقاً لما يرى حلا لمشاكله وأن يرسم طرق السير فى مسالكه.

وهذا الاختيار الذاتى هو الصورة التى يحققها لنفسه ، فالوجود أولا ثم من هذا الوجود تنبثق الصورة التى يجب أن يصنع حياته عليها .

* * *

ويجب أن نذكر دائماً أن الوجودى ليست لديه تعاليم وجودية لتحقيقها، بل يحقق وجوده الخاص طبقاً لاتجاهاته الذاتية ، ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول إليه أمره ولا توجد أية نظم أو حقائق مشتركة يلتقى عندها الوجوديون ليكون لهم منها إيمان بهدف ما ، أو فكرة ما ، أو عمل ما ، لا توجد حقيقة ثابتة على الإطلاق أكثر من أنك موجود فكل وجودى يدرك أنه موجود بلا رابطة بغير ذاته ، وهذا هى الحقيقة المستوحدة التى ليس بعدها فى الوجودية حقيقة ، وعليه تبعاً لذلك أن يكون فيلسوف نفسه ، يصنع لها مذهبها وسلوكها ، فإذا رأيت خمسة وجوديين فثمة خمسة فلاسفة وإن رأيت عشرة منهم كان لكل منهم فلسفته وإنجيله وربه ولو صار سكان الكرة الأرضية وجوديين فثمة أنبياء وفلاسفة بعددهم أجمعين لا يلتقى نبى مع نبى ولا تتشابه فلسفة مع أخرى إلا أن يكون الأمر مصادفة نادرة ولن يجدوا فى هذا الاختلاف ضيراً أو حرجاً على الإطلاق .

* * *

ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاتها ، ذلك أنه خارج على نظمها ومقدساتها فهو ليس منها ،

وقد يكون حرباً عليها ، فهو لا يبالى مثلها ولا يهمه مصيرها فهو فى حالة عدم معنوى ، أى لا وجودى .

ومع ذلك فإننى أجد هناك بعض اتجاهات لهيدجر وسارتر يعتبران فيها الوجود الفردى المستقل على صلة ما بالوجود العام ولكن ليس معنى ذلك ارتباط الإنسان بالكون ارتباط الجزء بالكل وإنما يمكن أن يشبه ذلك بطائر انفلت من سربه فهو يرى السرب أحياناً فى طيرانه الحر المنفرد ولكنه لا يعود إليه ولا يربط مصيره بمصيره ..

فأغلب الفلاسفة الوجوديين يعتبرون ذلك الطائر الوجودى له فلكه الخاص الذى يلف فيه ويدور ، إن شاء حط هنا وإن شاء عشش هناك ، وإن شاء حلق وإن شاء هبط ، بل إن شاء نتف ريشه وراح يئن فى حرية تامة ، دون أن يمد جناحيه أو يرنو ببصره إلى السرب الآمن المنطلق ينشد معونته أو اللحاق به.

بل إنه قد يحتقر ذلك السرب المتجمع الذى لا يقوى الطائر فيه على الانفلات من السرب فهو أسير المجموع ، إنه ضعيف جبان يستمد قوته وحياته من سواه .

وهذه الحالة يهذبها آخرون فيقولون إن للطائر الوجودى أن يحقق انفصاله عن السرب ثم يسير فى نفس اتجاه الريح

غير مرتبط بهدف السرب وإنما يختار هو هدفاً يرضيه فهو دائماً فى حال هذا الانفصال الوجودى فى قلق ومن شأن هذا القلق أن يجعله متحفزاً يقظاً معتمداً فقط على جناحيه هو.

* * *

فهذا الطائر المنفرد المحصور فى ذاته يصبح قلقاً من أجل مصيره فهو مجذوب إلى ذلك المستقبل الغامض الذى اختار بمحض الإرادة الذاتية أن يطير صوبه ولكنه لا يعرف أين ومتى وكيف سيجده، فهدفه الوجودى يسبقه دائماً وهو يطير نحوه . نحو فكرة ذاتية يسير خلفها دائماً أبداً مطيعاً مخلصاً ، ويمكن التعبير عنها بأن أهواء النفس تسبق صاحبها، ووجوده الذاتى يتابعها لتحقيق أهدافها، مهما كانت هذه الأهداف المعلقة أمام عينيه على بعد منه كلما اقترب منها ابتعدت فتابع صوبها المسير ولن يلتقى بها أبداً ولن يعدل عنها .

وقد يكون هذا السباق الأبدى متجهاً إلى أعلا إلى إيجابيات الحياة ومثالياتها ، ولكن الوجودى لا يحفل بقيمتها على هذا الاعتبار ولا يشده إليها أنها مثالية وإنما لأن ذاته الوجودية تنزع إليها ، فهى وجوده الذى عليه أن يتابعه بغير جدال .

* * *

ومتى كان الأمر كذلك فإن هذا الوجودى قد يحقق أموراً مثالية كالطائر الذى يجد نفسه يحط فوق بستان بينما آخر يحط فوق جيفة وكلاهما لا يبالى بما حط عليه .

وقد ينتهى الأمر بهذا الوجودى الذى تشده المثالية الذاتية إلى الروحانية ، إلى لون من ألوان التصوف . . إلى الله دون رغبة فى ثوابه ولا ابتغاء رضوانه ولا طلباً للسعادة فى عالم آخر ولا حباً فى الله .

على أن هذا الأمر الذى قد يحدث بمحض المصادفة والذى يندر جداً أن يحدث طالما كانت النفس هى التى تريد وتختار لا يمكن اعتباره من محاسن الوجودية لأنها لا تعنى به ولا تستهدفه ، فإذا ألقى فى عرض الطريق بكتاب نافع فالتقطه بعض المارة فانتفع به فإن الذى ألقى الكتاب تخلصاً منه لا يمكن أن يسمى واعظاً أو مرشداً فالوجودى لا ينشد الفضيلة لأنها فضيلة ، إنه منطلق فحسب لأن ذاته تدفعه ، فهو فى اتجاه دائم إلى ما يمكن أن يكون بالنسبة للكون العام لا شىء ، أى العدم : فالوجوديون يمكن أن يسموا بالعدميين لو سميت الأمور بنتائجها

* * *

والوجوديون يسمون الانطلاق المتحرر مع طبيعة النفس عملية خلق ، لأنها تعطى الإنسان الحق فى خلق إرادته واحتمال مسئولية ما يخلق ويختار ، وهذه عندهم هى عين الحرية . وهم يرون أن الحرية بهذا المعنى الذى لا يربطه شىء ولا يوجهه هى غاية الوجود الإنسانى ، فإذا تنازل عن هذه الحرية فقد تخلى عن وجوده كإنسان ، وأهدر حقوق ذاته ، غير أن بعض الوجوديين يجعلون هذه الحرية الذاتية متصلة بخيط ما ، بالوجود المطلق ، ولكنه اتصال اختيارى محض قد تقطعه أقل ريح عابر ، إن هذا الخيط مجرد لافتة مكتوب عليها أنه يوجد هنا عضو من الأسرة الإنسانية ثم لا شىء غير هذا ، كالتاجر الذى يضع على دكانه لافتة بأنه يمارس التجارة فى بعض السلع ، ولكنه لا يرتبط بنظام البيع العام ولا يحفل بتعاليم مجمع التجار ولا الأساليب المتبعة فى البيع والشراء

* * *

بل إنهم ليسمون اتصال الوجود الفردى بالوجود العام مشكلة ، بينما يعتبره العرف والمنطق والنظام العام بديهية ونظاماً : فالوجودى يخشى من الاعتراف بالوجود العام أن يضطره ذلك إلى أن يربط نفسه بالتزامات ما ، فيخضع ذاته للمعوقات

التى تنهض فى طريق حريته، إذ لا قيمة على الإطلاق للاعتراف بحقوق جماعة وأنت لا ترى نفسك ملزماً بالأخذ بهذه الحقوق ، إن الوجودى لا يعترف بالوجود العام إلا كما يعترف راكب القطار بمجموعة الركاب الآخرين ، إنه واحد منهم حرّ فى أن لا يتابعهم بل قد يدع القطار ويقفز من النافذة أثناء سيره بل ربما وجد لنفسه الحق فى أن يحطم الجزء الذى يحتله أو يفك أحد مساميره .

فالوجوديون لا يقيمون وزناً للقيم التى تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى به العقل والنظام ما لم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم مصادفة إنما العبرة عند الوجودى الأصيل بالتجربة الشخصية ، والمعاناة الذاتية ، فهو لا يعترف بالنار لمجرد أنه يشاهدها أو لأن الناس أسموها كذلك وخافوها بل لابد له من أن يحترق بها كى يدرك ذلك ولا يعترف بحلاوة شىء إلا إذا تذوقه .

* * *

من هنا تنشأ فكرة اللادينية ، إذ الوجودى لا يعترف بشىء غير مرئى وغير محسوس . غير واضح فى نفسه لم يجد فيه إبرة تخزه فى صدره ، وبما أن القواعد والتقاليد والنظم والأديان

هى مجرد أفكار مثالية ، وتشريعات وتوجيهات لم يصنعها الوجودى ، ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها والفكرة بصفة عامة لا وجود لها ، إذ الوجود لا يكون إلا لما هو كائن بالفعل .

والوجودى لا يلتفت إلى الوراء لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط نفسه بأفكارهم ، إنما يبدأ وجوده يوم أحس هذا الوجود ، ولا حرج أن يصل هو إلى بعض ما وصلوا إليه بتجربته الخاصة بل قد يصل إلى الله دون أن يرشده أحد إليه أو يذكره به ولا فخر فى ذلك إلا للتجربة الذاتية الحية .

وهذا الاتجاه يفتح أبواباً عدة إلى الضلال ، ذلك أن كل إنسان مهما كانت نزعته الوجودية وإحساسه بهذه النزعة وتكريس إرادته مع قوة الدفع الذاتى ،فإن ذلك كله إذا حشر فى تجربة ذاتية فردية دون مقاييس سابقة ستصل به إلى نتائج لا يطمئن إلى قيمتها الحقيقية من الحق أو الباطل ما دام لايوجد الميزان الذى توزن به .

وعلى هذا الأساس فإن التجربة الواحدة مع مجموعة من الوجوديين ستكون نتائجها مختلفة وينتهى الأمر إلى الفوضى التى لا رابط لها والاضطراب الذى لا يعصم منه شىء .

* * *

ومهما يكن من أمر فإن الوجودى غير صادق فى ادعائه إنه هو خالق إرادته وصانع مشيئته ذلك أن اتجاهاته الذاتية التى تملى عليه رغباتها ، ويجند لها إرادته . . . هذه الاتجاهات الوجودية ليست من صنعه الخاص وإنما هى تفاعلات غير محسوسة للبيئة والظروف والحالة العامة التى وجد فيها والتى تطبعه بطابعها فهو حين يزعم أنه يتصرف بتمام حريته يكون مخدوعاً عن الحقيقة التى كونت هذه الاتجاهات ، فهو ليس إذن حراً فى تجربته التى هيأته لها الأقدار منذ ولد بل قبل أن يولد وقبل أن يستطيع أن يزعم أنه وجودى ، ولو كانت هذه الظروف قد تغيرت فى البيئة الاجتماعية أو العائلية قبل أن يولد لتغيرت تبعاً لذلك الدوافع التى يزعم أنه خالقها ، فالإنسان المربوط بحبل طوله ألف ياردة قد يتحرك مسافة ما دون أن يحس القيد فيظن أنه حر إلى غير حد ، ولن يستطيع الوجودى مهما جاهد أن يتحرر كلية من الوراثة ومن أثر البيئة التى نشأ وعاش فيها قبل أن يمارس النزعة الوجودية ، ونحن حين نذكر ذلك نضع فى الحسبان فلسفة سارتر وهى أسهل الفلسفات الوجودية التى تجعل للوجود الذاتى رباطاً ما بالوجود العام ، الأمر الذى تنكره كثير من الفلسفات الأخرى الوجودية ، وإن كانت الفلسفات

الوجودية تتشابه فى المحاور الأساسية التى تدور عليها والتى تحرر الفرد تحريراً كاملا من كل قيد،ومن هنا تنشأ عدة اختلافات واتجاهات أكثر من الاختلافات الموجودة بين الأديان المختلفة والمذاهب المتفرعة عنها ، بل ربما كان هناك من التفاوت بين اثنين من الوجوديين أكثر مما هو بين مؤمن بالله متصوف فى إيمانه وبين آخر يعبد الأوثان ، فبينما نجد وجودياً يعلن أنه بتجربته الوجودية اهتدى فى حرية تامة إلى اكتشاف الله والإيمان به إذا بآخر تهديه نفس التجربة إلى الإلحاد ولا يعتقد أن أى تجربة قد تقود الإنسان إلى الله.

وسارتر يعلن هذا ويقول إنه لايوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود لأن الله غير موجود ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية ، لأن الوجودى لم يختر هذا الحل وإنما فرض عليه فرضاً.

فالدين عنده خرافة لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك ، وليس معنى هذا أن الوجودية تسقط عالم الفكر من حسابها وإنما لها فى ذلك منطقها الخاص فبينما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود إذا بالوجودى يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق

الاتجاهات الفكرية ... أى يخلق الوجودى الفكرة التى يصنع بها حياته ... مثله فى ذلك كمثل عابد الوثن الذى يصنع الوثن أولا بيديه ثم يخر له ساجداً فالوجودى ليس فى معزل عن عالم الفكر بل إن أفكاره ذاتية بحتة ، وعلى أساسها يعالج صلته بالناس وهو يرى أن الأفكار الخارجية فيها إعدام للذات أو اتجاه إلى العدم لأنها ليست منبثقة من وجود ذاتى مستقل ، على أن هذا قد يكون غير منطقى وغير واضح ولكن ذلك هو شأن الوجودية طالما أن محورها الرئيسى هو الذات الفردية فالوجود الفردى يختلف عند إنسان عنه عند الآخر ولهذا تختلف الاتجاهات الفكرية وربما كان ذلك هو السبب فى عدم وجود تعليمات أو نظم يتواصى بها الوجوديون بل هى اتجاهات فكرية فردية لا تصلح أساساً لحياة إنسانية كريمة وهى تنافى كل المقومات الضرورية لإقامة مجتمع سليم متكافل متعاون .

الوجودية . . . والعقيدة الدينية

ليست هذه كلمة رجعية يراد بها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان شد العجلة إلى الوراء ومنعها من التقدم إلى الأمام وليست محاولة لسد المنافذ أمام ضوء جديد ينير بعض الطريق ولكن من حق الإسلام كدين أصيل فى هذه المنطقة من العالم أن يتحقق من شخصية الأفكار الواردة عليه « كالديدبان » الذى يفحص أوراق المارة فإما أن يدعهم يمرون إلى داخل الحدود أو يردهم إذا كانوا مصدر خطر وليس هذا حجراً وإنما هو وقاية فمن حق الإسلام إذن أن يكشف عما فى هذه الواردات من حق أو زيف حتى لا يشغل أهله بأمور إما أن تكون حقيقة قديمة جاءتهم فى ثوب غريب وفى هذه الحال قد يكون من الأصوب الرجوع إلى الأصل والأخذ عنه مباشرة وإما أن تكون كما يقول أديب كبير مصرى من أعراض « مغص عقلى » .

* * *

ومن هذا التشبيه نتصور أن هناك أمراضاً قد تصاب

بها الأفكار عقب تخمة فكرية غير متجانسة تحشر حشراً في العقول فلا يكون لها مفر من أن ترسلها على صورة ما قد يحدث تماماً للمعدة حين تحشر فيها ألوان شتى من الطعام بلا تجانس ولا حساب .

فأين الوجودية من هذا التشبيه ؟

وهل هى فلسفة إيجابية وغذاء فكرى ؟

وأين هذه الوجودية من الإسلام وأين هو منها ؟

إن دعاة الوجودية لم يصلوا بعد إلى تحديد ثابت لأهدافها وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعتها فهى حالة انبثاقية من داخل الإنسان تهدف إلى إجراء تنفيذى لما يعتمل باطنياً فى الذات فهى دعوة للإنسان إلى تحقيق وجوده الذاتى أى يعيش طبقاً للدوافع النفسية التى تدفعه من الباطن كما يدفع البخار القاطرة فيحقق بذلك وجوده الكونى .

ومعنى هذا أن الوجودية على هذه الصورة تحاصر الإنسان داخل نفسه فى قوقعة مغلفة باتجاهاته الذاتية البحتة .

* * *

وهذه الدعوة قد تهرب إليها بعض النفوس وتجد فيها لوناً من ألوان العزاء والتعويض السلبى ولو مؤقتاً عقب الكوارث

فينطوى الإنسان على نفسه كافراً بالقيم العامة والتقاليد .

* * *

وإذا كان من حق كل إنسان أن يحقق وجوده فهل الإمكانيات الكونية تسير فى خطوط متوازية بالنسبة لرغبات كل فرد فى تحقيق وجوده بلا صدام مع وجودية الآخرين ؟ أم أن التفكير الوجودى قد يدعو إنساناً إلى الاتجاه يميناً بينما الدافع الوجودى لإنسان آخر قد يدفعه يساراً فيكون صدام فى عرض الطريق وأن ذلك قد يخل بالأمن والفضيلة والنظام ؟

وهل ترى أن دعاة هذا المذهب قد فكروا لنا فى علاج لهذا الصدام الذى يبدو واقعاً لا محالة عند النظرة إلى الفكرة الوجودية ورغبة كل إنسان فى تحقيق ما توحى به ذاته ؟ أم أنهم يتركون السيارات وعربات النقل والدواب والناس ويقولون لهم هذا هو الطريق فسيروا كما تشاءون ؟ ؟

* * *

وهل يمكن أن نقول إن الوجودية هى أن يصنع الفرد لنفسه ديناً ويحقق فرديته من حيث هو إنسان موجود فى هذه الدنيا . ديناً فردياً لا علاقة له بالآخرين ؟

* * *

إن الوجودية كلمة مرنة يمكن أن تتسع لأفكار كثيرة بينما أستطيع فى وضوح أن أقول إن الإسلام دين يحقق الوجودية المثالية .

ذلك أنه إذا كانت الوجودية هى تحقيق الدوافع الكامنة فإن الإسلام يصنع أولا هذه الدوافع النفسية وينميها ويرعاها فى نظام تكافلى كامل يحقق خير وجودية للفرد مع الوجودية الشاملة للمجموع فإذا كان دعاة الوجودية يعطونك مقعداً وثيراً ويقولون لك ضع هذا المقعد حيث شئت فى مركبة الحياة فإن الإسلام يصنع لك هذا المقعد ويعطيك إياه ويحدد لك مكانه من مركبة الحياة حتّى لا تزاحم أحداً ولا يزاحمك أحد ولا تثير المتاعب والمشاكل فتسير المركبة فى اطمئنان وسلام .

* * *

الإسلام يحدد للإنسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه

فوجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فرداً مثالياً متحلياً بالفضائل .

ووجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو فيها تحدد له واجباته العائلية التى لا يتحقق وجوده العائلى إلا بها ، ووجوديته

من حيث هو مواطن تفرض عليه تبعات فى نطاق الوجودية الوطنية، ووجوديته كإنسان تلزمه نحو البشرية بالتزامات نحو الوجود الإنسانى السليم .

ولكن السذج الذين آمنوا بالوجودية كانوا غير مسلحين بعقيدة دينية تحميهم من عواصف هذه الفتنة العمياء التى تبيح لهم الشهوات وتخلع عليها أسماء رنانة ، بل وترفع من قدرهم حين توهم هؤلاء المخدوعين أنهم أصحاب دعوة فكرية وفلسفة جديدة ؛ وانتفش ريش هذه الدعوة الجديدة حين تزعم أمرها هرقل ضخم من أباطرة السحر والبيان فتولى زمامها ، وراح « سارتر » ينفخ فى مزمارها ويكرس أسلوبه وحياته وقصصه للدعاية لها ، وساعدته الحالة النفسية التى انتهت إليها بلاده ، التى ركعت تحت قدمى « هتلر » على نفخ البالون الوجودى الأجوف ، وراح من حوله مهرجون كبار يسوقون فى سبيل شرح الوجودية حشوداً ضخمة من الألفاظ التى تؤدى بتلاعب ماهر عكس معانيها . . وأخذت القصص الحادة التى تستهوى شباب ما بعد الكارثة تغذى أعصابه بهذا الوقود النارى وهى تدعوه إلى التنفيس عن رغباته المكبوتة والبحث عن السلوان حيث كان تحت اسم مقدس بين التهليل والاحتفال بأنه بذلك يؤكد ذاته ويمارس وجوده .

ولقد وصف الوجودية الفليسوف « جان كانابا » فى كتابه المعروف باسم الوجودية ليست فلسفة إنسانية فقال « إن الوجودية رائعة إذا شوهدت عن بعد غير أنها تبدو على حقيقتها حين نقترب منها فنكتشف أنها ليست إلا بناء من ورق » .

* * *

وعندما تلقى الشباب المتعب الباحث عن اللذة هذه الدعوة وهو غير مسلح بعقيدة دينية راحت خفافيش الدعوة الجديدة تحلق فى أجواء لا نسور فيها وأخذت الجموع تحج إلى كعبة السرور والأنس وتمارس ألواناً من شذوذ الملوك فإذا ما سئل أحدهم عن ذلك أجاب بأنه وجودى .

وراح ذلك الوجودى يغشى المجتمعات ويندس فى كل وسط مبشراً بدعوته وقد وجد الأمر فى بعض الأحيان سهلا لميل النفوس إلى الجديد ولأنه يدعوهم إلى التحلل من قيود تحول دون ممارسة الأهواء ، وهو يزعم أن الوجودية فوق الأديان جميعاً حتى يكسب لها أنصاراً من كل دين — فالمسلم والمسيحى واليهودى الجميع يجدون الترحيب فى مجال الدعوة الإنسانية الجديدة .

فهى — إنسانية لأنها لا تقاوم نفسها . . وكل إنسان ميسر

لما وجد من أجله . فليطع الهاتف الباطنى حين يدعوه — إلى أى شيء . هذا قولهم بأفواههم .

وللوجوديين أسلوب عجيب فى المغالطة — إذ الهدف هو استعمال الألفاظ بلباقة حكيمة لكسب الأنصار ، فهم يدّعون أحياناً أن هنالك وجودية مؤمنة ويؤيدون ذلك بأن « كيركجارد » نبي الوجودية الأول الذى دعا إليها من أكثر من مائة وخمسين عاماً كان مؤمناً ، ولا يقتضى الإيمان فى كل الأحوال التصديق بوجود إله خالق لهذا الكون . . بل إن المؤمن الوجودى قد يؤمن بنفسه ويكفر بالله . . لأن الإنسان موجود تراه وتسمعه وتتحدث إليه وأما الله فغير موجود لأننا لا نراه ولا نسمعه .

ولذلك يلزم الإيمان بالموجود أى بالإنسان والكفر بغير الموجود أى بالله .

فهذا الإيمان الوجودى هو إيمان المرء بنفسه .

* * *

فأنت ترى أن هذا لون عجيب من التلاعب بمرونة الألفاظ حتى تتمكن الوجودية من أن تكسب أنصاراً من كل سبيل يسيرون وراء طبلها ، وحتى يتسع المجال لها بهذه الأساليب

الملتوية كى تتسلل فى كل جماعة وكل هيئة وكل دين وهى تحمل لافتات ترضى ميول كل طائفة حتى يأنسوا إليها كما يقتحم الجاسوس حصون أعدائه بزى خداع لينسفها من الداخل .

والوجودى قد تصطدم رغباته بالمجتمع ونظمه وتقاليده وعاداته . . . لا بأس . . ولا حرج عليه فى ذلك على الإطلاق – إنه لن يبالى . . . سيهز كتفيه ويمضى فى سبيله . . وهو ينظر إلى الدين والمجتمع والناس وكل ما اصطلح القوم على احترامه وتقديسه إذا عارض رغباته نظرة اللامبالاة .

((شعاره . دع هوى النفس ينطلق إلى غايته – ويمتد طولا وعرضاً بقدرما تستطيع قواك – إنك حينذاك تملك أن تصنع أشياء كثيرة – وأن تنشئ أحداثاً ضخمة – وأن تؤثر فى كل شىء – وأن تجنى ثمار كل شىء .

هذا هو وجودك فحققه .

* * *

المجتمع عند الوجودى خرافة .

ونحن الذين خلقنا هذه الخرافة . فالإنسان وجد فرداً . . وهو لن يمد يده إلى سواه إلا إذا أحس ضعفاً . فهو يبتغى

عند المجتمع حينذاك مساندة .

المجتمع وهم يسند الضعيف الذى لا قدرة له على تأكيد ذاته — والاندماج فى المجتمع يشل شخصيتك وإن ذلك لحماقة كبرى . فلا تجعل هذه الخرافة تقف فى طريقك — ولا تلجم حريتك باسم هذا الشيء الذى لا وجود له .

إنك لست مديناً للمجتمع بشيء — فليس عليك أن ترد هذا الدين بأن تقمع من رغباتك أو تحد من سلطانها لحماية الآخرين — فكل إنسان يجب أن يعيش حياته كما يهوى . .

هذا هو منطق القوم .

* * *

فإذا ما نفضت من المجتمع اليدين . . فلا تقم وزناً لما هو أشد حمقاً من المجتمع . . وهو الدين . . إياك ومعانى الحرام والحلال — فلا تجعل من نفسك عبداً لهذه الخرافة الأخرى — فالله غير موجود . . وإنما هو كلمة ابتكرها الإنسان ، إن الإنسان هو الذى خلق الله — وأقام فى ذهنه هذا الخيال الضخم ليخدر نفسه به إذا أصابه مكروه . . أو ضل فى الحياة سعيه . فيزعم لنفسه أن هناك أجراً فى الآخرة مرصوداً — فيه عوض وجزاء عما فاته فى الدنيا .

* * *

الوجودى يسخر من ذلك كله — فهو ليس فى حاجة إلى عزاء عما يفوته فى دنياه . فليس بعد هذه الدنيا شيء — وسيمارس فيها حياته كما يحلو له .

* * *

والفلاسفة الوجوديون لا يلتقون عند نقطة ابتداء فى شرح مذهبهم أو تحليله . ولا ينتهون عند غاية سواء . . فأنت تراهم لا يدينون بشيء ولا تجمعهم طريق — لأن لب هذه الدعوة هى الذات وحريتها الفردية — ولكل أن يمارسها وفق رغباته .

إن عمر الإنسان محدود على الأرض ، وأيامه فيها معدودة فعليه أن ينتهز فرصته ليعيش أيامه لنفسه فحسب ، مستمداً أسلوب حياته من أهوائه غير مقيد بشيء آخر غير إرادته . ضارباً بكل ما عدا ذلك عرض الأفق . فقد ولد مصادفة والموت سيطوى إن آجلا أو عاجلا سجله ، فعليه أن يعتصر من الدنيا لذائذها . . وأن يكرس عزماته لتحقيق هواه . وليكن بعده الطوفان . . ولتذهب الدنيا بمن فيها وما فيها إلى الجحيم . فما يهمه من ذلك شيء .

الوجودى صاحب نفسه فحسب ، وصديق هواه أولا وأخيراً . لا تقف فى وجه رغباتك . . ولا تلجم شهواتك بقيد ما . .

إن مثلك إن فعلت ذلك كمثل من يعترض مجرى السيل ، أو يلقى الأحجار فى مجرى النهر . . دع السيل حراً يتدفق إلى غايته – وهو لا يزعم ذلك فى سذاجة . إنما هناك فلسفة تشرح دقائق هذه التعاليم وتدافع عنها .

* * *

حينما نسلط بعض أضواء الإسلام على الوجودية إنما نعنى بذلك العقيدة . . فالإسلام رمز للعقائد السماوية وبينما يعمل الوجودى على تفتيت المجتمع . . ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه ، نرى أن العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية . . ليتكون من النقط المتفرقة نهراً . . ومن اللبنات الموزعة بناء . . فالعقيدة تجعل الفرد يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لا ينضب معينها ولا تضعف .

وبينما الوجودى حين يسير فى حياته فرداً يصبح كالريشة قد تطويه أى ريح . إذا بالعقيدة تجعله مع المجموع قادراً على مواجهة الحياة والأشياء بتلك القوة الجماعية . فلا يحس أنه ضائع ولا يشعر أنه عاجز ، ولا يقيس عمره بأيامه القليلة على الأرض ، وإنما يزنها بميزان الإنسانية الكاملة ، وعمرها الذى يمتد من الأزل إلى الأبد .

* * *

تلك هى وظيفة العقيدة الدينية ـ وذلك هو أثرها فى النفس والحياة ـ إن الوجودى يريد أن يكون قويًّا بنفسه .. وهو يغمض عينيه عما سواه . وذاك وضع غير منطقى مع الحياة .. إن مَثَله مثلُ الجندى الخارج من الصف .. يزعم أنه قادر على مواجهة العدو وحده .. إنه يسخر من العرق والعناء الذى تبذله الجموع .. إنه مريض بوهم كبير ويستنكر كل علاج قد يشفيه من هذا الوهم ...

إنه يظن أنه سيعيش سعيداً .. بينما السعادة الصادقة لن تتيسر بغير العقيدة لأن السعادة هى الخير .. وكل ما نالته البشرية من خير إنما كان بسر العقيدة .. فالعقائد هى التى جمعت الناس كالبنيان المرصوص فى وجه كل شر يراد بهم .. ولو كان الأمر إلى كل فرد يعالج أموره على حدة .. لقضى أيسر الشر على الناس أجمعين .

* * *

وبينما الوجودى يضحى بكل صالح للجماعة فى سبيل ما يرى فيه الخير لنفسه .. إذا بالعقيدة تقدس التضحية بالعمر الفانى فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تفنى .. والفرد حين يسلم زمامه لعقيدته سيحس تجاوباً مريحاً مسعداً لأنه ينفذ نظاماً

لا يستقيم أمر الخير على الأرض إلا به .

فالعقيدة هى وحدها التى تمنح الناس المعونة وتمدهم بالمساندة . . وهى التى تحقق للفرد حريته الصادقة . . لأنها ستنقذه من عبودية شهواته . . فالوجودى حين يعلن تحت اسم زائف أنه يريد أن يكون حرًّا من كل قيد حتى يحقق رغباته . . إنما يعطى بذلك إقراراً أنه عبد لهذه الرغبات .

* * *

إن المرء فى ظل العقيدة تصغر فى عينه قوى المال والجاه وقوى المركز والسلطان وقوى الحديد والنار . . فهو يستخلص حريته وينأى بها عن كل المؤثرات بينما الوجودى سينحنى لهذه القوى التى يلتمس عندها تحقيق مرغوبه . . وهو لن يجاهد فى سبيل شىء من المثاليات الصادقة . . فهو بالإضافة إلى عبوديته لذاته سيكون عبئاً على الآخرين لأنه يعتزلهم فلا يشارك فيما يدفع ضرا عامًّا أو يجلب خيراً .

الوجودى إنسان لا قدرة له على الصبر والكفاح . . وهو دائماً مستطار اللب هلوعاً من فكرة الموت . . بينما المؤمن القوى العقيدة يحرص على الموت كى توهب له الحياة .

* * *

إنها لحماقة كبرى أن يتخلى الوجودى عن الفائدة العظمى التى تحققها العقيدة فى سبيل الاستمتاع الوقتى بالحلول الذاتية لمشاكله . . . إنه لن يجد الحل الدائم للمشاكل إلا مع العقيدة التى تسلح تلك الحلول بالقوة التى تكفل لها البقاء .

* * *

وبعض الذين يخدعون ببريق الدعوة الوجودية معذورون .. ذلك لأنهم لم يتذوقوا عقيدة دينية ولم يدرسوها دراسة عميقة تكشف عن جواهرها ((وإذا كان البعض يرى حجته فى الضعف الذى حاق بالأمم الإسلامية وبالمسلمين فى أكثر أحوالهم . فليس ذلك راجعاً إلى ضعف إمكانيات العقيدة فى رسم منهاج متكامل للحياة . وإنما يرجع لابتعاد هؤلاء المسلمين عن جوهر عقيدتهم بحيث أصبح انتماؤهم إليها انتماء لفظيًّا بعيداً عن الروح التطبيقى لمقتضيات هذه العقيدة

* * *

وأريد أن أؤكد ما أشرت إليه مراراً إلى أننى حين أذكر العقيدة الإسلامية فى معرض مناقشة الوجودية . . إنما أعنى كل عقيدة دينية . ذلك أن العقيدة الإسلامية هى عقيدة إنسانية تدعو إلى وحدة متماسكة . وهى منارة تريد أن ترسل

ضوءها إلى كل البقاع . ليهتدى بها كل السائرين بلا تمييز .

إن الوجودى باتجاهاته الفردية ينسف البناء الذى جاهدت الإنسانية على مدار عمرها الطويل فى إقامته . وهو يقطع كل حبل اتفق الناس على الاستمساك به فى مسارب الحياة . ولذلك فإن كل جهد يبذله لن تكون نتيجته ذات قيمة عملية . . إنه يدور فى حلقة مغلقة . . وهذه الحلقة تتخبط فى دورانها وهى تعوق سير القافلة البشرية .

* * *

وإذا كان الوجودى ينشد اللذة . .

فإنه باتجاهاته تلك يحرم نفسه من أكمل وأقوى أنواع اللذات . . وهى اللذة الروحية .

* * *

هذه اللذة البالغة الحلاوة ، حتى إن الإسلام ينهى أتباعه عن الاسترسال فيها . إنها لذة الاستغراق فى الصفاء الوجدانى . . الذى أحسه الرجل الصوفى وهو يسرى فى كيانه ويجعل أيامه ولياليه لذة ناتجة عن فكرة موصولة بأسباب الأرض والسماء . فهو باتحاده فى الكون يشعر بكل ما فيه من جمال فيقول عن نفسه وإخوانه .

نحن فى لذة لو عرفها الملوك لحسدونا عليها .

* * *

والعقيدة الإسلامية تهدف إلى إسعاد البشر فى دنياهم قبل أخراهم وترشد كل إنسان إلى أن يأخذ بحظه من نصيب الدنيا وهى تجمع الناس وتجندهم فى كل حقل من حقول الإنتاج . وتدعو دائماً إلى العمل الجماعى وتجعل العمل قرين الإيمان . . فى كل آيات القرآن لم يرد الإيمان خلواً من العمل . . إن إيماناً بغير عمل كشجرة بلا ثمر .

والعمل كلمة تعنى دفع العجلة دائماً إلى الأمام ولكن الوجودى حين يختار لنفسه العزلة عن حقول الإنتاج مستمتعاً بهواه . إنما يقاوم عجلة التقدم . وهو بذلك شر على نفسه وعلى الناس .

* * *

إن الوجودى عدو للعقيدة الدينية . فهو عدو لكل شىء . فالعقيدة تدعو إلى الوحدة العامة . من الجماد إلى النبات إلى الحيوان الأعجم — إلى الإنسان الناطق — .

إن الإنسان سيشعر بمسئوليته إزاء هذا كله . . . وعليه تجميع كل شىء كما تتجمع تروس الآلة لينشأ عنها دولاب

ضخم متكامل الأجزاء . . يؤدى الرسالة العظمى التى أرادها الله للناس وجعلهم مستخلفين فى الأرض وكلاء مسئولين عن كل ما فيها .

فالوجودى بوضعه ذاك عدو لله . . والذى يعادى الله . . إنما يعادى كل شىء حتى نفسه .

ويتشدق الوجودى بمعانى الحرية . .

إن العقيدة لا تستمد حريتها الضيقة من معنى أرضى محدود تافه . . إن العقيدة حين تدعو إلى الإيمان بالله إنما تضع نظماً شتى عادلة لكل شىء . . وبهذه النظم يسعد كل إنسان ويجد هناءه .

وما دام هذا الكون من صنع الله . . والخلائق به يهتدون . . فلن يكون هناك وجه للنزاع والتطاحن ، وفى ظل العقيدة يتساوى الجميع فى تحصيل الخير .

فالناس سواسية كأسنان المشط .

ولن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . أنه ارتباط ينشأ عنه السلام على الأرض . . ذلك السلام الذى يحاربه الوجودى حين تتعارض رغباته مع رغبات الآخرين الذين لا يعترف بهم ولا يقيم لهم ولا لمجتمعهم ولا لدينهم وزناً .

فالوجودية مبدأ خطر على الإنسانية وضد قضية السلام .

ونحن الآن فى بلادنا نواجه ألواناً شتى من المشكلات والعوائق ونريد أن نجمع الأمة على ما يسدد خطاها . . فمن الخطأ البين أن ندع أفكارنا تذهب بدداً فى مسارب ملتوية .

إننا فى مسيس الحاجة إلى كل فرد وإلى كل طاقة ولابد أن نواجه ذلك بعقيدة تجمع قوانا .

إن العقيدة وحدها هى التى تسعفنا بالقوة اللازمة لتوحيد الجهود فى كل حقل وكل ميدان .

وإذا كنا قد ألقينا الأضواء على الوجودية من وجهة نظر العقيدة الإسلامية . فإننا سنذهب فى الفصول التالية إلى تفنيد كل مذهب من مذاهبها على انفراد لنكشف عنه النقاب .

سر الوجود كما يراه « مارسل »

كان كيركجارد هو الداعى الأول للوجودية وتدور محاور دعوته حول الذات وتجميد نزعاتها ثم انطلاقها بعد ذلك فى انبعاث حر من كل قيد . . ثم كان للوجودية دعاة آخرون . منهم جبريل مارسيل ، وهو صاحب فلسفة خاصة ، فإذا كانت أهم مبادئ الوجودية هى الانفرادية فكل إنسان إذاً يختلف عن الآخر فى اتجاهه الوجودى مادام يرى نفسه حرًّا فى اختيار مذهبه ومن ثم تكون لكل إنسان فلسفته الخاصة المستمدة من تفكيره الذاتى ، وعلى هذا فإن لمارسيل فلسفته التى نادى بها عام ١٨٨٩

إن محور فلسفته الوجودية هو الجسد ، فكل إنسان تنبه إلى أول شىء فى وجوده فوجد جسده ، فالجسد الإنسانى هو الأصل الذى وجدت الذات فيه نفسها ، ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجى لتحقيق الاتجاهات الوجودية . . فأنا لا أقيس أى شىء إلا بمقدار ما يتأثر به جسدى ، فهناك شركة يتكون منها الوجود الإنسانى الجسد والذات والأحاسيس

والجسد غير مرتبط بصورة سابقة لوجوده ــ عمارة قائمة لا صلة لها بالمهندس الذى أقامها ولا تعترف به ولا بالتصميم الذى أقامها على صورته ورسمه ، بل على هذه العمارة أن تهندس نفسها منذ اكتشفت وجودها وعليها أن تخلق عالمها .

* * *

ومن هنا قد يسير مارسيل خطوات عن أستاذه كيركجارد نحو الصلة بالعالم الخارجى فنفهم منه أن الجسد فى تنفيذ أحاسيسه ينشأ عنه ما يسمى بالفلك الوجودى الذى يدور فيه ويتأثر به .

ونفهم منه أيضاً أن أحاسيس الوجودى تبدأ من الجسد وتتجه إلى فوق لتنطلق باستمرار متجهة إلى الأعلى متخذة لها معراجاً تصعد به نحو المطلق ، الوجودية تتركز تركيزاً تاماً فى قوة إيجابية صاعدة نحو الذات المطلقة ولكنه لا يحدد لها سلماً ترقى عليه ولا مصعداً تصعد به ، حسبها أن تنطلق متحررة من كل قيد بشرط أن تتجه إلى الأعلى دون أن تعرف بالضبط ما هو المفهوم من الاتجاه إلى الأعلى ما دام لا توجد هناك مناهج ولا خطط مرسومة ولا أهداف معينة ، ولكن المهم هو أن الوجود عنده أن يخلق الإنسان إرادته ويتجه بها إلى التعالى

على الدوام ، فإننى وجدت لأعلو ثم أعلو حتى أصل إلى الوجود المطلق .

ولك العذر إذا وجدت إطاراً يتكون من هذه الألفاظ وليس بداخل الإطار صورة واضحة المعالم .

إن مفهوم هذا الكلام أنه لون من ألوان الاتجاه إلى الله .

هكذا نفهم إذا ترجمنا الألفاظ إلى لغة المتصوفة وحينئذ يفرح رجل الدين ويهلل الفيلسوف المؤمن مارسيل .

ولكنه لا يحدد لنا ما نطمئن إليه لهذا الزعم فهو لم يرسم صورة واحدة نقتدى بها فى ذلك التعالى الوجودى ، حسب المرء أن يجتهد فى دمج وجوده بالذات المطلقة ، ولما كان كل إنسان يختلف عن سواه فى الفهم الحر الاختيارى فلن تستطيع تحديد صورة واحدة لما يعنيه بالضبط مارسيل

* * *

ومارسيل يعود إلى فكرة الفلك الوجودى فيقول إنه يعنى أن الذات تسير فى مدار الوجود شاعرة بشخصيتها منفردة بطابعها ، فلا تكون مطية أبداً للمجتمع ولا تفنى فيه فكل ذات عليها أن تذهب فى تنفيذ مواهبها بوحى إرادتها أثناء هذا الانطلاق إلى فوق دون الاندماج مع الآخرين ، فالوجودى

لا يدع نفسه ذرة تائهة فى الصحراء ، بل يعمل فى صحراء الحياة مقيماً حوله سياجاً منفذاً بقوة اختيارية مشيئته وأن هذا التفرد ضرورى ولا مجال للمساومة فيه ، لأن الاندماج مع الغير هروب من المسئولية التى هى إحدى المحاور الأساسية للوجودية .. لابد إذن من المسئولية الذاتية .

المسئولية الكاملة الخلاقة التى تجعل الإنسان خالق نفسه ، أى خالق اتجاهاته الوجودية ، فالوجودية تزداد وجوداً كلما ازدادت تفرداً دون نظر من الوجودى إلى ما حوله ، ومن حوله فهم مجرد آلات تعاونه أو تساعده من بعيد

* * *

ولكن الشعور بالوجودية يقتضى وجود آخرين حتى تنشأ المسئولية لأنه لو لم يوجد الغير ، لما كانت هناك صلات ولا ارتباطات أو أعمال وهى كلها ضرورة الوجود لممارسة الوجود ذاته فى اتجاهاته ، ومن هنا فإن وجود الغير ضرورى لأنه العامل المسبب لإبراز وجودها وإيجاد فرص للاختيار والمسئولية .

ومن هنا يبدو أن مارسيل يتقدم فى حرص انفرادى نحو المجتمع بعض خطوات ، فيجعل هناك صلة ضرورية بخارج الذات . . . بل هو يجعل العالم جزء من وجودنا لا يتحقق الوجود

الذاتى إلا به فأنا لا أتكلم إلا إذا كان هناك من يسمعنى ولا أنظر إلا إذا كان هناك ما يرى .

فالأشياء والناس هى آلات نمارس عن طريقها وجودنا وبذلك يبدأ نوع من الاتصال الحسى يظل يتدرج ويسمو حتى يصل إلى نوع من الاتصال العاطفى يبدو فى الحب فأنا لا يمكن أن أمارس عاطفة الحب ما لم أدخل فى وجودى العاطفى شخصاً محبوباً ثم يتدرج أكثر من ذلك إلى مشكلة الخلود .

ولعل هذا التدرج من الحس إلى العاطفة إلى الخلود هو ما يطلق عليه الانطلاق الوجودى إلى التعالى فهو يرى أن الخلود مشكلة .

ولكنه يعترف بالخلود ، فالإنسان يموت ويتحلل جسده ولكننى قد أظل أذكره كما لو كان موجوداً فهو خالد فى نفسى إن شئت استحضرت صورته وإن شئت استعدت كلامه وكأننى أسمعه وإن شئت تصورته قائماً يذهب أمامى ويجىء . . وكلنا جرب هذا الشعور من استحضار صورة عزيز مات فى مخيلتنا .

* * *

فالوجودية عند مارسيل تبدأ من الإنسان باعتباره جسداً غير مرتبط بأشياء سابقة ثم يذهب مع هذا الجسد بعد أن يقيم حوله حصناً ذاتياً ليقيم له صلات بالناس والأشياء ثم يتدرج إلى العاطفة ثم إلى الزمن الذى يقهره فى تعاليه بتخليد الصور التى يريدها .

ولو أن مارسل جعل القيم الإنسانية والفضائل أساساً يرتبط به الإنسان فى تنفيذ هذا التدرج . إذن لمددت إليه يدى كمسلم يفهم دينه لأقول له إنى معك

ولكنه لم يفعل

* * *

قد تكون هناك محاسن لهذه الوجودية إذا صادفت نفساً نقية ، وذلك أنها تجند القوى الذاتية لتنفيذ أغراض الذات ، فمن الخير إذن أن تكون أغراض الذات مدروسة دراسة جندت لها عقول العالم المفكرة والنظم السماوية المقدسة حتى لا تضيع هذه الجهود الذاتية المجندة لخدمة الذات فى تنفيذ اتجاهات سلبية تنخدع بها النفس فى حالة عدم ارتباطها بموازين ومقاييس

* * *

ولو حدث ذلك لكان من محاسن هذه الوجودية ، اليقظة التامة للدفع كل ذرة من ذرات الوجودى الإنسانى لتنفيذ الهدف إذا كان الهدف إيجابياً .

ولو حدث هذا لكان لها محاسن أخرى منها تنمية الشخصية الاستقلالية .

ولكن هذه المحاسن لابد أن يشترط لقيامها أن تكون الوجودية قائمة على أسس إيجابية سبق أن حددها الوجود الإنسانى باعتبارها أصلح صورة للإنسان المثالى ثم تأتى الوجودية فتجعل الذات مجندة فى سبيل تحقيق هذه الصورة المثالية وتستهدفها فى أعمالها .

* * *

القدر . . والوجودية

هل الوجودى قادر حتماً على تحقيق وجوديته . . ؟ وإذا لم يكن فما جدوى هذا العناء ؟ هل من الضرورى أن ينتهى اختيارى لعمل ما إلى النتيجة التى أرجوها ؟ إن أحداً لا يمكن أن يقطع بذلك ، فإن المرء لابد أن ينحنى للقدر وينزل إن راضياً أو راغماً على أحكامه وإذا كنت مستعداً دائماً أبداً لاحتمال المسئولية ، فليس هذا معناه وجوب تحقيق الأمر الذى يقع عليه اختيارى ، هنالك القوة التى تدعنا نعبث ونلعب فتهدم هى ما عبثنا به وما لعبنا ، وما كنا نظن أننا قادرون عليه .

فالوجودية لا يمكن أبداً أن تجعل الفعل الذى استهدفه واجب الحدوث ، إنها قد تكون منطقية لو أن للإنسان قدرة حتمية على تكييف وجوده . . أو كان قد خلق بناء على إرادته ، أما أن تكون الذات قد فرضت فرضاً ، وهى معلقة بخيط القدر ثم تزعم هذه الذات أنها حرة حرية كاملة فإن ذلك بعيد عن المنطق ،

إن القط قد يتربص لبعض الجرذان ، ثم يدعها وهى

تحت سيطرة مخالبه تلعب وتمرح ليلهو بها إلى حين ، فلو زعمت أن لها حرية المرح والعبث فإن مخالبه هى الحقيقة القائمة التى تكذب هذا الزعم . . . إن المخالب هى التى تحدد نوع ومصير الحرية التى يزعمها لنفسه الجرذ الصغير.

وليس معنى هذا أن يقف الإنسان رافعاً يديه مغمضاً عينيه مستسلماً للعاصفة وإنما عليه أن يدرك من أين تهب العاصفة ثم يحتمى منها بالحصون التى أقامها على مر الزمن . . العقل والدين . . وليس من الحق أن أزعم أن هذه الحصون تفنى وجودى وتلاشى شخصيتى لأننى لم أصنعها . . كيف أزعم هذا وأنا لم أصنع نفسى ولم يكن لى فى وجودى إرادة أو اختيار ؟

* * *

فالإنسان عاجز عن تحقيق وجوده تحقيقاً كاملا كما يشتهى حتى ولو هيئت له أسباب النجاح ذلك لأن الإرادة المنبعثة من الذات لتحقيق العمل تختلف قوة وضعفاً لأسباب لا دخل لى فى صنعها كالصحة والذكاء والوراثة والإمكانيات المختلفة التى لا سلطان لى عليها ، إن أسباباً أخرى تتداخل بالرغم منى لتشترك فى تحديد خط سيرى .

ومعنى هذا أننى لست حرًّا بالوصف الذى يتطلبه الوجودى

أن الفيلسوف « يسبرز » يقرر معى هذا المذهب من أنه من المستحيل أن تعيش ذات معتمدة اعتماداً كليًّا على إرادتها فحسب وأن الذات لا تمارس خصائصها إلا فى النطاق العام .

إن هذا الوجودى الكبير قد ابتدأ من الصحراء ضالا فأبى أن يسأل عن الطريق وبعد عناء وطول جهد التقى بالناس فى بعض المنحنيات ، ولكنه لا يعترف بأن هذا الالتقاء هو الهدى أو هو من حكمة القدر ولا يندمج مع الآخرين ويسير بعد ذلك كما يلتقى الجندى بفرقته فى الجيش فيسير معها بعد أن ظل زمناً ضالا فى طريقه عنها وإنما يظل منفذاً لتعاليمه الذاتية فلا اندماج فى خطوات ولا اشتراك فى هدف وإنما علاقات عابرة قائمة على تحقيق المنفعة الذاتية دون نظر إلى نظام الجيش الذى ينتمى إليه

* * *

لقد التقى « يسبرز » الفيلسوف الوجودى مع الناس فى بعض الطريق ثم راح يشق له بينهم ممراً خاصاً على هواه ، وهو فى الواقع يهتدى بهم أثناء سيره معهم لأنه مدفوع مع المجموعة ، وهذا أمر مستحيل التحقيق وإذ سينشأ عنه كثير من الخلل والاضطراب ومعنى هذا أن ما يزعمه الوجودى عن

إمكان الاعتماد الكلى على فرض ذاتيته هو زعم غير واقعى وأنه يطلق على تصرفاته اسماً حلواً فى بعض الأسماء ولكنه لايدل على معنى صادق أو على كل المعنى المقصود

* * *

لو قلت هذ القول للوجوديين فلن يسلموا به ، سيلفون كعادتهم ويدورون ويقولون لك .. ان الفيلسوف « يسبرز » إذا كان قد جعل العلاقة مع الآخرين أساساً للوجود فليس معنى هذا أن الوجودية تستند إلى ما سواها وإنما هى فقط تستمد من هذا العلاقات الغيرية أحجاراً تبنى بها طريقها الذ تى أو أسباباً تبلغ بها المراد .

معنى هذا أن الوجودى لا يمكن أن يكون زوجاً أو أباً لأن اتجاهات الحياة الزوجية أو العائلية قد تتعارض مع اتجاهاته الذاتية ومن ثم فهو يعانى فراغاً فى العلاقات الروحية هذا الفراغ العجيب الذى لن يستعيض عنه الوجودى بشئ مما تمتلئ به حياة الناس .، وربما كان هذا مفتاح السر فى تقدير الألم والخطيئة ذلك أن الإنسان يجب أن يسير فإذا لم يذهب مع القافلة يميناً فإنه سيذهب شمالا والنفس كالزجاجة الفارغة إذا لم تملأ بشئ ما ملأها الهواء ، والهواء عند الوجودية هو

الألم والقلق والخطيئة وربما كان هذا انتقاماً حتمياً من الحياة ، من الذين ينحرفون عن طريقها الطبعى المرسوم .

* * *

ولو انقلب الناس جميعاً وجوديين لما كان هناك إنسان يهتم بما يصيب الآخر ، فواقع كلها فى القاع منها ما يتحرك ومنها ما يغوص فى الطين فالذى ينجح فله نجاحه والذى يفشل فليذهب إلى الجحيم ، ذلك لأن القوقعة الوجودية لا تهتم بغير ذاتها ما لم يكن هناك شيء يأتى مصادفة . . . وهى تعترف بأن الآخرين ليسوا سوى آلات ينتفع بها فى تحقيق الذات ، كالكاتب الذى يتحطم فى يده القلم فيلقى به ويتناول سواه بلا حزن . ستنشأ من هنا للناس آلام . . . فليكن . . فإن الألم مقدس لأنه ضرورة لابد منها بل هو الحافز للإحساس بالقوة الوجودية ومن الضعف أن يستمع الوجودى إلى ما يقوله رجل الدين عن السلوان والعزاء ، إنه يسد أذنيه حتى لا تتلوث وجوديته بما قد يذهب بألمه فهو لا يريد أن يعلم بأنه . . . (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

إنه يرى أن ما يحبه وما يريده هو الخير المنطبق تمام الانطباق

على وجوديته وإلا فلا

* * *

على أن فلسفة يسبرز الوجودى لا تخلو من شيء جدير بالتفكير ويقرب أن يكون تسليماً بنظرية القضاء والقدر فهو يرى أن الله هو الكمال المطلق أو هو المعنى المضاد للفشل فإن كل شيء لا يكون قائماً إلا إذا وجد ضده فوجود الليل يقتضى وجود النهار ليتميز كل منهما عن الآخر وقس على ذلك وجود الأبيض بوجود الأسود ووجود الحياة بوجود الموت ، فوجود الفشل يدل على وجود كمال ، وبما أننا لانجد فى الدنيا كمالا مطلقاً ، فلابد إذن من أن تكون هناك فى الحياة ألوان مختلفة من الفشل ليكون هناك فى الجانب الآخر كمال مطلق هو الله .

* * *

أهداف الوجود الإنسانى

يقف طلاب الحقيقة طويلا عند العمق الكامن فى فلسفة الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر (١٩٠٠) إذ يبدو أن فلسفته الوجودية تدور حول أهداف الوجود الإنسانى أو الغاية المطلقة من الوجود ، فهو قد لا يكون وجودياً على طريقة الفلاسفة الوجوديين الآخرين ، فقد ذكرنا أن الفلسفة الوجودية فلسفة ذاتية تختلف باختلاف ما يراه كل إنسان ، لأن الأمر لا يدور على محاور ثابتة لا تتغير.

فالإنسان عند هيدجر خلق لتحقيق رسالة السمو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائماً وهو اتجاه مثالى تنشرح له صدور الذين يؤمنون بالله وبالعقل وبالحياة ، ولكن ليس علينا أن نتلقى هذه البداية بقرع طبول التفاؤل فهيا بنا نمش على حذر مع هيدجر فإذا استحق أن نصفق له فعلت ذلك كمسلم فاهم لأصول دينه غير متعصب وإنما غيور على الأصول المقدسة.

* * *

إن البداية مع هيدجر مشجعة ولا شك ، فهو يرى الإنسان

ليس باعتباره جسداً موجوداً كما فعل يسبرز وإنما باعتباره المخلوق الوحيد المسئول عن الكون وعمارة الأرض والذى يمتاز عن سائر المخلوقات بأن مجال نشاطه هو فهم الطبيعة ودراسة أسرارها واستغلالها فهو وحده أى الإنسان الحاصل على شرف الوجود ، وما عداه فآلات مسخرة له . . فوجود الإنسان يتحدد من رسالته فهو إذن الكائن الوحيد الموجود وما عداه فليس وجوده أساساً .

وإذن فقد بدأنا . . بدأنا ننظر إلى الوجودية من خلال منظار واضح .

* * *

والإنسان عند هيدجر ليس مستوحداً منفرداً بذاته ، وإنما لابد له من علاقة مع الوجود البشرى العام ، فتحقيق رسالة وجوده مرتبط بذلك . فإذا انطوى ذلك الإنسان على نفسه واعتقل ذاته داخل قوقعته دون أى صلة بالغير فقد أنهى بيده وجوده . . . واختار العدم فهناك صلة ما بين وجود الإنسان كفرد وصلته بالكون كوجود عام ، أى بين الموجود والوجود ذاته وهذه الصلة تنشأ عنها التزامات

* * *

ولكنه حين يعطى الإنسان هذا الضوء ويفتح له الطريق يحذره من الطريق ومن الناس ومن الجنوح إلى الرأى العام وإلا استحال وجوده الذاتى إلى شبه وجود أو وجود مائع إياك وأن تجعل رأيك يضيع فى خضم هائل كما تضيع قطرة الماء فى المحيط .

لا تجعل نفسك صورة من صور الناس فهم يجنحون إلى لذة الكسل والثرثرة ، كن سيد نفسك وأفكارك وانأ بنفسك عن ضغط المجتمع ، إنك فى حرب مع العالم ، وجدت فيه بالرغم منك ... وهو يعلمك أنك تريد أن تنتصر على الظروف والزمن والطبيعة وتأخذ ما فى يد سواك فالجميع فى مقاومة تنشأ لك منها المتاعب والآلام ، فيجب أن تواجه هذه الحقيقة وأن تلقاها وجهاً لوجه وأن تعض بالنواجز على القلق الناتج من ذلك فهذا القلق ضرورى ولابد منه لإشعال حماس النفس فهو منبه الذات والمحذر لها من كل ما يريد أن يشدها إلى الفناء

* * *

والواقع أننى حين أريد أن أجرب هذه النظرية أجد أن الحياة المليئة بالقلق قد تنتهى إلى تحطيم صاحبها ، لأنها مخالفة لطبيعة الحياة نفسها فليس الوجود عدواً لى وإنما كل ما فى

الكون صديق لى يريد معاونتى فى تحقيق رسالتى الإنسانية ، والله قد خلقه وسخره لهذا وقد يكون بينى وبين الناس والوجود العام نضال أو كفاح ، ولكنه أشبه ما يكون بالمباراة الرياضية لا عداوة فيها للمتبارين ، والانتصار الرياضى هو انتصار للغالب والمغلوب لأنه نصر للهدف الرياضى ذاته والفكرة الرياضية بصفة عامة .

على هذا يمكن تحقيق النجاح والاطمئنان إلى الحياة والسير معها ومع الناس فى رضى بلا قلق ولا خوف كما يريد هيدجر . والنظرية التى تقول بأنه على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح هى نظرية سليمة أثبت الزمن والتجارب صدقها ، وليست الراحة الإنسانية ضعفاً بشرياً ، فإن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإنما خلق ليؤدى رسالته وهو راض عن نفسه وعن الحياة بلا خوف منها .

إن هذا الاسترسال يدفعنا إلى التساؤل . . . لماذا خلقنا . . ؟

وهيدجر الفيلسوف الوجودى يجيب بأننا خلقنا لنموت . . لكى نكون فى نهاية الأمر فريسة للعدم وقد يمكن الرد على هيدجر فى هذه النقطة بأنه ما قيمة الخوف والقلق إذن ؟ إذا كانا لن يغنيا عن النهاية شيئاً . ؟

وهل حقاً أن الإنسان قد خلق لينتهى إلى العدم أم أنه خلق ليحيا ويتطور من حياة إلى حياة أفضل أن يقوم بتطوير نفسه فى هدوء حتى يلقى الله فى النهاية السعيدة لأن الإنسان يستأنف حياته الأخرى على الصورة التى مات عليها أى على الدرجة التى وصل إليها فى حياته فيبدأ الحياة الروحية من حيث انتهت الحياة الأرضية .

* * *

(إن هيدجر فى رعب دائم من الموت إننا سنموت والموت شيء مخيف فيجب أن نخافه .)

ولكن لماذا كان الموت مخيفاً ؟

إنه مشفق من الموت لأنه التجربة الوحيدة التى يعانيها المرء ثم يطوى على حقيقتها نفسه فلا يعود ليتحدث بها إلى الناس ويمارس ما تعلمه منها .

فإذا كان هيدجر يخاف الموت لأنه شيء مجهول والمجهول يخاف ، وإذا كان هيدجر أيضاً لا يريد أن يستمع إلى ما يقوله الله تعالى عن الموت فإنه بالمنطق لن يخرج عن أحد أمرين :

١ ــ إما أن يكون فناء مطلقاً وإذا فقد ارتاح الوجودى من ذاته التى أتعبته طويلا وعذبها وعذبته .

٢ ــ وإما أن يكون تحولا إلى عالم آخر فى رحلة من نوع جديد فيجب أن يسر الوجودى لفرصة القيام بتجربة جديدة وكلا الفرضين يجب أن يطمئن من أجلهما هيدجر فلا يخيف الناس .

* * *

على أن هيدجر المثالى فى بعض نواحيه يبدو فى نواح أخرى أكثر تزمتاً من سواه من أباطرة الوجوديين فقد تفهم أنه يقول فى نظرية له بأن الإنسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن يحققها ليصبح موجوداً وهو غير مرتبط طبعاً فى عمليات التحويل الوجودى بالعقل أو بالدين بل عليه أن يسير وحده حسب توجيهات الصاروخ الذاتى الذى يدفعه حتى يقف بالرغم منه عند المحطة المكتوب عليها لافتة باسم الموت .

* * *

وطبيعى أن هذه العملية سيلازمها الهم لأن الإنسان يسير غير مستعين لا بالله ولا بالعقل ولا بشىء آخر فهو يحمل همه على ظهره ويصعد الجبال أو يخوض البحار أو يغرق فى اليم أو تنوشه السباع وليس له أن يستغيث أو يطلب النجدة

أو المعونة لأنه لو فعل لفتح باب الغير كى يقتحم وجوده . وبينما نحن فى هذه الظلمات إذا بالحقائق البسيطة السهلة تسخر منا فإذا كان الوجود الإنسانى هو الشعلة التى أراد الله بها أن يضىء ناحية من الوجود فعلى الإنسان أن يحملها راضياً حتى إذا انتهى فى الطريق إلى المحطة النهائية ووجد هناك من يريد أن يستلم منه الشعلة ليستمر فى عمله الأرضى ثم يعود هو إلى المكان الذى انتدبه منه الله فى أول الأمر ألقى بالتحية راضياً للمتخلفين بعده على الأرض ثم انحنى لهم فى تقدير وتوارى فى عالمه بلا ضجة ولا غم ولا تعقيد للأمور .

* * *

الوجود . . واللاوجود

سارتر هو عميد الوجوديين الحالى والمسئول الأول عن كثير من اتجاهاتها الحقيقية فى هذه الأيام وهو الكاشف عن كثير من الأمور الشاذة التى عليها فلسفته .

والوجودية عنده نوعان . وجود ثابت وهو وجود الأشياء الجامدة الثابتة على ما خلقت عليه والإنسان وهو الموجود المتغير النزاع إلى تحقيق شىء ما وهذا الشئ هو شغله الشاغل باستمرار لاهثاً مجهداً خلف الانبثاقات الذاتية التى تنبثق منه وتسبقه وعليه أن يلحق بها . هذه الإرادة الذاتية المنطلقة أمامه ترتسم أمام عينيه على هيئة صورته التى يجب أن يكونها وهذه الصورة التى هو مطالب بتحقيقها لا تستقر أبداً أنها باستمرار أمام عينيه وهو يريد أن يلحق بها ويدخل فيها ويحقق بهذه النهاية ذاته .

وهو يشارك أساطين الوجوديين السابقين من أن الإنسان ليس عليه أن يستعين بالدين أو العقل أو نظريات وضعها

غيره فى تحقيق وجوده لأن ذلك يفسد هذا الوجود .

* * *

ونحن نرى أن سارتر يرمى إلى أن الأصل فى الوجود هو اللاوجود . هو الفناء . . والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أى يخرج بذاته من اللاوجود .. من الجمود .. من العدم فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الإرادى للفعل هى المحاولات اللازمة لتحقيق الوجود وليس هناك إله عليك أن تستمع لتعاليمه لأن الوجودى لا يسمع نصحاً ولا وصية ولا موعظة وإنما عليه هو بممارسة التجارب الوجودية أن يصل إلى الصفات التى تصبح علماً عليه . . ولقد ندرك أن سارتر يزعم بأن الإنسان هو الذى خلق فكرة الله لأن الإنسان له الحرية الكاملة فى اختيار صفاته وتحقيق وجوده وهذه الحرية غالية الثمن وصعبة فى ممارستها وتكلفه هموماً ومتاعب ومسئولية فالإنسان فى طور من أطوار عجزه أراد أن يريح نفسه من أنه غير قادر على تحقيق رسالة فاعتنق فكرة وجود الله لينسب إليه أسباب فشله الذاتى وليعزى نفسه بأنه لم يستطع أداء هذا العمل لا لأنه عاجز بل لأن الله لا يريده فيغمض الإنسان عينيه أمام متاعب المسئوليات ويهز كتفيه ويستغفر ربه ويجنح إلى الراحة .

وعلى هذه الصورة يزعم سارتر أن الله غير موجود ولكن الإنسان هو الذى خلقه للأسباب التى لخصناها .

* * *

وهكذا ترى أن الإنسان حيثما اتجه مع الوجوديين لن يظفر بشيء سوى الدوران مع ألفاظ حادة ذات تعبيرات ملتوية قد يجد فيها بعض ذوى النفوس المعذبة راحة أو حافزاً لاحتمال العذاب أو مبرراً لاستمرار نوع خاص من السلوك .

إن للوجودية فى بعض حالاتها جوانب مشرقة ولكنه إشراق زائف كإشراق قطع الزجاج الملقاة تحت أشعة الشمس فى صحراء وهى فى الأعم الأغلب تهدم فى نفس الإنسان الماضى والحاضر والمستقبل فى سبيل إشعار النفس بنشوة الكبرياء وإقناع الوجودى أن الثمن الضخم الذى يتحمله يعادل هذه النشوة الذاتية المتعالية

على الوجودى أن يقف بالعصا فى طريق كل ما هو مقدس فإن هوت النفس إلى شيء من ذلك لوى عنانها فى قسوة إلى الداخل لتعاود تدريب نفسها تدريباً على الوحدة والتميز الانفرادى ثم تعاود الانطلاق إلى الخارج لتنفيذ الشحنة المغلفة بأغراض الذات « وسارتر » يسمى هذه العملية حرية وذلك لأن

الحرية جزء منا لا نستطيع التخلص منها لأنها هى الوجود فإذا تخلصنا من الحرية لم نكن فى حالة وجود وإنما نكون قد أسلمنا أنفسنا إلى العدم .

* * *

إن النفس وجدت فى هذا الكون بدون إرادة منها فكأنما هى تنتقم لنفسها بأن تنفذ ما تشاء غير مقيدة بالقوى الخالقة الموجهة كالسجين المتمرد على سجانه، إنه سيغضب على ذلك السجان ويخالفه وسيكون من أجل ذلك خائفاً يترقب فهو فى حالة قلق مستمر وهو يقول لنفسه فليكن ، فإن هذه هى الحرية التى يمارسها داخل السجن لأن الرضوخ لأوامر السجان هى الاعتراف بالسجن هى إعدام الحرية وإفناء الوجود وتسأله لماذا لا تريد أن تحيا فى هدوء ؟ فيجيب . . هدوء ؟ إننى أريد أن أكون حراً رغم سجنى إننى أحقق وجودى الحر الذاتى والمتاعب التى أتحملها هى ثمن هذه الحرية .

* * *

حينما يجتمع اثنان لأداء عمل متشابه من الأعمال أخذهما وجودى والآخر عبد من عباد الله فإن عبد الله سيقول لقد جرب هذا الموضوع من قبل فلان أخى أو صديقى وفاز فيه

بخير كثير ثم إن طريقته متفقة مع النظم والمثل والتعاديل البسيط الذى اقترحه هو كذا ليكون الأمر أكثر نفعاً فإذا نجح عبد الله هذا ازداد استبشاراً وشكر ربه وإذا فشل قال لنفسه لم يكن فى وسعى أكثر من هذا لقد بذلت جهدى ثم كانت إرادة الله .

ولكن السيد الوجودى لن يرضى بهذا الأسلوب، سيغمض عينيه ويغوص فى أعماق ذاته يتلقى منها الإلهام ثم يجعل إرادته تتجسد وتندفع خارجة لتجره وراءها فى قوة وحماس ثم يحس قلقاً يرج كيانه لأنه فى اختياره غير مستند إلى قوة تحميه أو رأى يعضده والنجاح والفشل عنده سيان، ذلك أن الحقيقة عنده هى الانطلاق ، هى مجرد الحركة نحو تحقيق رغبات الذات .

* * *

ويظهر أن الوجوديين يستعملون كلمة الحرية استعمالا عكسيًّا فلست أدرى أيهما أكثر حرية ؟ أذلك الذى يجد الشجاعة الكافية لتضحية . أهوائه فى سبيل الأخذ بفكرة أثبت العقل والدين صلاحيتها ؟ أم الطفل الذى يريد أن يحصل على اللعبة ويلهو بها وله حرية تحطيمها ؟

إن الإنسان خلق على صفات وأخلاق وعادات لم يصنعها هو بنفسه لكى يكون له الحق فى الادعاء أنه ينفذ أهداف

ما صنع وإنما هو يتصرف طبقاً لما أودع فيه بالرغم عنه من صفات فإذا لم يهتد بالإرادة الخالقة فى تسيير هذه الآلة الإنسانية بما علم صانعها من أسباب الخير لها كان خائناً لهذه الآلة الإنسانية التى هو أمين عليها وخائناً لوجودها لأن تحقيق وجودها الطبيعى رهن بتحقيق رسالتها التى حددها لها صانعها وفقاً للنظم التى تثبت صلاحيتها سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية .

ففهم الحرية هنا فهم غير أمين : إن السائق ليس حراً فى استعمال السيارة بطريقة قد تحطمها وإنما هو مكلف أن يسوقها فى حرية وفقاً لإمكانياتها ومدى احتمالها فى حدود التصميم الذى أوصى به المهندس والمخترع

* * *

والحب . . .

تلك العاطفة الحلوة الرقيقة التى هى أجمل ما فى الوجود الإنسانى عليها يتعارف الناس وتكون بينهم المودة وبها تتغذى الفنون ويتغنى الشعراء .

إن للوجودية فيها رأياً

ذلك أن الحب مشاركة وجدانية .

وهذه المشاركة تقتضينى أن أضحى بأشياء من أجل

الحب ذاته أو الحبيب .

ولكن الوجودية لا تريدك أن تبذل شيئاً أو تتنزل عن شيء لأن ذلك إنفاق من خزينة الذات يذهب بقليل أو كثير من ثروتها الوجودية .

فالحب ليس مشاركة عاطفية عند الوجودية . . لأن المشاركة معناها أن الذات فتحت بابها لذات أخرى . وإنما الحب استمتاع فردى كل من الحبيبين يقف على شاطئ وهذا يقذف لذلك بقدر ما يعطى الآخر... أى أن الحب تبادل متعة بل هو نوع من الصراع يحاول كل طرف أن يحصل لنفسه فيه على متعة من الطرف الآخر كعملية البيع والشراء والأخذ والعطاء والبضاعة فى حدود الثمن ثم يذهب البائع والمشترى كل إلى حال سبيله فإذا كانت هذه هى نظرة الوجودية إلى أسمى ما فى الوجود وهو الحب الذى تهتز به النفس وتمتلئ وتسعد وتجد فى الفناء فيه تحقيقاً لأسمى تضحية أمكننا أن نحكم على قيمة الحياة نفسها فى نظر الوجودية .

إن كيركيجارد زعيم الوجودية الأول وقع فى الحب ولكنه حطم قلبه ولم يتزوج حتى لا يكسر جناح الحرية وآثر أن يكون وجودياً .

إن جنون الحاكم بأمر الله يمكن بهذا القياس أن يجعله زعيماً كبيراً من زعماء الوجودية ذلك أنه كان يقتل أحبابه وأصحابه حتى لا يكون رجلا ضعيفاً تأسره العاطفة فتفتح ذاته لشخصية أخرى تشاركه وجوده .

إنه يطعن عواطفه ويقف على أشلائها ناعماً بنشوة الحرية حرية الخلاص من أسر الحب والعاطفة ورباطها المقدس .

فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها إلى شيء ليس لها إرادة فى اختياره ولو كان فى هذا الشيء نعيم الحياة ولذتها العليا فالوجودية تعادى من يحاول أن يجذبها إلى نظم الحياة ويذيقها برد الراحة بينما هى تريد أن تظل تضرب على غير هدى فى صحراء نارية وتقطع اليد التى تحاول أن تجفف عرقها ، أليس الوجودى يريد أن يكون خالقاً . ؟ . والخالق لا يتخذ صاحبة ولا ولداً وليس له كفواً أحد !!

وهكذا يتخبط « سارتر » حتى يضل وينتهى بالرد على نفسه بما لا يحوجنا إلى تعليق فيقول إن الإنسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغى فيظل هائماً وراء الوجود المثالى الذى يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه .

فليظل هكذا ما دام كذلك قد وجد .

* * *

من هم الوجوديون . . ؟

تسربت الفكرة الوجودية إلى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب فراغاً روحياً هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياة من تحت أنقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجوههم غبار الانهيار الذى انهارت معه أعصابهم ليروا كل شىء قد ذهب . . . المال . . والجاه . . والزوجات . . والأولاد . . فأصيبت القيم المعنوية التى عجزت عن أن تدخل العزاء إلى النفوس بتصدع كبير .

وكان لابد لكثير من الناس أن يجد له واحة يصنعها بنفسه يستمد منها فلسفته الجديدة يستطيب معها احتمال آلامه فبرزت الوجودية من مخبئها القديم وراحت تنادى بالدين الجديد فى الظرف المناسب .

وكان المرعى الخصيب للدعوة الوجودية هو أوساط الشباب حيث كل جديد يبدو براقاً وحيث لا توجد فى أعماق النفس من التجربة والخبرة مقاييس تقف أمام هذا الدين الجديد بكل زخارفه وألوانه .

وساعد على هذا أن رجال الدين فى كثير من البلاد لم ينهضوا ليقدموا للناس العزاء بصورة واقعية ولا لتصوير الدين تصويراً صادقاً ترتاح إليه النفوس المعذبة قبل أن يخطف أبصارها بريق الوجودية .

وهناك طائفة أخرى من أتباع كل جديد من الذين يسارعون إلى اعتناق كل فكرة جديدة باعتبار أن هذا التصرف يكسبهم فى نظر الغير لوناً تقدمياً فلا يتهمون بالتأخر ولا بالرجعية وهؤلاء كثيراً ما يسيئون إلى الوجودية أكثر مما يحسنون إليها لأن انتسابهم إليها وفهمهم لها يعتبر سبة فى جبينها فإنها مهما كانت من هوان الشأن فإن لها فى بعض جوانبها ناحية مشرقة فإنك يمكن أن تجد فى كل شر ناحية خير .

فراح كثير من الوجوديين يلبسون مذهبهم ثوب التهريج ويخلعون على هذا التهريج لوناً من ألوان القداسة ويجندون فى سبيل الدفاع عن ذلك حشوداً من الألفاظ المرنة المطاطة التى تحمل كثيراً من المعانى والتى فيها من قوة التأثير الشكلى ما يستهوى الناظر السطحى .

* * *

وكما أن النار المندلعة من أكوام من القش ترتفع فى الجو

مرة واحدة حتى تخلب بارتفاعها الشديد الفجائى الأبصار ثم تخمد وتتوارى ، كذلك صنعت الوجودية فإنها بدأت بعد الحرب ترتفع فى فرنسا ارتفاعاً شديداً ثم راحت تخمد وتتوارى . ومن سوء حظ بعض البلاد أنها أبصرت بنيرانها فى إبان ارتفاعها الفجائى فراح البعض يقلدونها وينفخون فى جذوتها عندهم بينما هى تحتضر فى بلادها . . . إن الوجودية مقضى عليها حتما بالموت لأنها تحمل فى جسدها ميكروبات مرضها والقضاء عليها ومن الخير أن ندعها تموت بغير ضحايا وأن ننقذ الذين يستهويهم أن يكونوا من ضحاياها .

إنها رائعة إذا شوهدت على البعد ولكننا حين نقترب منها ونلمسها نسخر منها ونسخر من غرورنا بها حين كنا نراها بناء ضخماً وهى من الورق المنفوش

* * *

وإذا كانت الوجودية تحتضر الآن فى بلادها فإننا لا نريد لها وهى تموت أن تضع رأسها على وسادة يصنعها عندنا بعض المهرجين المطبلين لها حتى لا يظن أنها شهيدة

إن الأصوات التى نسمعها تتكلم باسمها هى حشرجة الموت للوجودية حين تصرخ فى صحوة الاحتضار . . إننا يجب أن

نرقب موتها جيداً حتى لا يتخلف بعدها وليد ملعون يحمل اسمها ويدعو بدعوتها .

* * *

إن من طبائع الناس أنك لو وقفت بينهم فى ميدان كبير ورحت تؤذن وتدعوهم إلى الصلاة لمروا بك ساخرين ولو ظهر بينهم دجال يخرج من جيبه ثعباناً يصفر لالتفوا حوله فى عناية مصفقين ولكنهم قد ينصرفون عنه بعد ذلك وينسون أمره وذكره وهكذا التفاهات قد تجد رواجاً لا يثبت على الزمن .

وليست الشهرة وسرعة الانتشار بدليل على قوة المبادئ وثباتها فالأمور الجدية قد تلقى حرباً ضروساً وتظل أجيالا حتى يرتفع لها بناء ولكن الهياكل التى تقام سريعاً من الورق يكفى عود ثقاب ليأتى عليها .

لقد ظهر الوجودى فى المجتمعات الباريسية فى زى تهريجى غير مقيد بعرف ولا تقاليد ولا دين يزعم أن هذا هو التحرر من كل شىء عدا الإحساس بالوجود والتصرف طبقاً لهذا الإحساس . وقد يكون هذا التصرف مخالفاً للوجودية الأصلية ولكن يكفى أن الوجوديين أنفسهم يعترفون بأنه لا توجد للوجودية سمات محددة وليست لها وصايا وإنما هى تكشف

لكل إنسان عن وجوده وتترك له حرية التطبيق فللناس العذر حينما يرون وجودياً فى زى خاص أو تصرف خاص أن يروا بأنه يتصرف وفقاً لنزعة مستمدة من الاتجاه الوجودى الذى يحرص أنصاره أن يرددوا بأنه لا دين له ليتسللوا من وراء ذلك إلى كل دين فعلى الوجودية إذن أن تتحمل وزر ما يلقى عليها ما دامت دعوة بلا وصايا ولا نصائح ولا مثل .

* * *

الوجودية . . والإنسانية

إن سارتر وارث عرش الوجودية يتلخص دستوره الذى يفهم من كتاباته واتجاهات أعوانه وجنود مذهبه وما تنبض به قصصه ومحاضراته ، يتلخص ذلك كله فى الدعوة إلى طاعة النفس .

فأنت تجد فى قصص « سارتر » شخصيات تدور حول تنفيذ الوحى الذاتى وتمجيده ولو كانت هذه الانبثاقات الذاتية ذات صبغة طيبة كأن تدعو إلى تمجيد الفضيلة أو الخير أو الجمال إذن لقلنا إن النفس الداخلية توحى بالخير والشر وأن الوجودى يتحمس للجانب الإيجابى .

ولكن العكس هو الصحيح ذلك أن النفس أمارة بالسوء ولذلك فإنه من الصعب جداً بل ربما كان مستحيلا أن تجد وجودياً يركز وجوده فى سبيل فكرة بنائية أو عمل إيجابى .

إن الشيطان نفسه يستحى من أن تكون كل إيحاءاته سوداء بل إنه ينفذ إلى النساك والعباد بأن يغريهم أولا بشىء من الخير وربما دعاهم إلى التطرف فيه ليلهيهم التطرف عن حقيقة

الأصول الإنسانية القائمة على الاعتدال .

والنبي محمد يقول لأن يذهب أحدكم فى حاجة لأخيه خير له من أن يعتكف فى مسجدى هذا أربعين ربيعاً ذلك أن نفع الناس هو رسالة الإنسان وخير الناس أنفعهم للناس وألد أعداء الاتجاه الإنسانى هى الأنانية حتّى لو أريد بها الخير الذاتى المحض .

والهواتف الوجودية كلها تدور حول الذات أى حول الأنانية .

فالوجودية إذن لا تحفل بالإنسانية وهى ذات خطر كبير لأنها تمجد الغرائز وتباركها وهى خالية من الأمصال التى تحميها من جراثيم الشرور .

* * *

على أنه إذا كانت هذه هى الوجودية التى يخلب بريقها أبصار الشبيبة التى يستهويها طاعة النفس فإن الإنسان يحار فى تصرفات أقطاب الوجودية ممن تعتبر تصرفاتهم تطبيقاً عمليًّا لدعوتهم ويجب أن لا تنسى أنهم دائماً ــ وهذا يكاد يكون عرفاً متبعاً فى الوجودية . . يخلعون على تلك التصرفات أسماء لولبية تفهم على تأويلات شتّى لتضييع الحقيقة وسط الألوان الكثيرة .

« فهتلر» مثلا كان يلغى شخصية الفرد فى سبيل فائدة ألمانيا ويجعل الفرد الألمانى وقوداً لإدارة الآلة الكبرى . . الدولة .

ويبدو أن هذا ضد الوجودية التى تمجد الفردية ولكن « هيدجر» أستاذ « سارتر » بعد أن عينته الحكومة النازية عام ١٩٣٣ عميداً لجامعة فريبورغ ذهب أولا فى تمجيد الإرادة الفردية تمجيداً بعيداً حتى ليقول أحد تلاميذه متهكماً إننى أود أن أكون ذا إرادة حديدية كما يدعو هيدجر ولكنه لم يوضح لنا ما هو هذا الشيء الذى يلزم أن نصمم عليه وأن نجعل إرادتنا فى سبيل تحقيقه إرادة حديدية .

ويحار تلاميذ هيدجر فى تفسير أمرين متناقضين.. الفردية المطلقة كما تدعو إليها الوجودية .. والفناء المطلق فى شخص الزعيم هتلر .

فإذا بهيدجر الوجودى الكبير يفسر لهم الأمر فيقول إن هتلر هو روح الشعب وهو صميم الوجود الألمانى فحينما تفنى فى هتلر تكون قد حققت صميم الوجود الألمانى الذى هو وجودك أنت من حيث أنك فرد ألمانى .

* * *

فإذا اتخذنا هذا التفسير العجيب قاعدة فإن الوجودى

يمكن أن يفعل أى شىء بأى طريقة وبأى أسلوب ثم يبرر ما ذهب إليه بأن هذا هو الوجود العام الذى يفنى فيه وجودى الشخصى.

وفى ذات الوقت يمكن لوجودى آخر أن يحارب نفس الشيء ويستعمل نفس التأويل بطريقة عكسية . . فالوجودية على هذا تبرير عجيبى مرن محض يقبل أى صورة وزئبق لن تستطيع أن تمسك به .

وهذا المبدأ أولى به أن يسمى بالانتهازية التى تنتهز أى فرصة لتنادى باسمها تحت اسم الوجودية وستجد فى القاموس الوجودى من الألفاظ الحادة ذات الرنين الموسيقى الذى يستهوى الشبان ما يضرب على أوتار نفوسهم

* * *

بل إن الوجودية ذهبت فى وقت ما إلى تمجيد الدين واعتبرت أن إيثار الإنسان لأى مطلب شخصى يعتبر خطيئة فى حق الوجود الإلهى الذى يجب أن يفنى الإنسان فى ذاته المقدسة على الطريقة التى رأى بها هيدجر فناء الفرد فى ذات الزعيم « هتلر »

ويقول « كارل باسبرز » الفيلسوف الوجودى « إن الإنسان ليدفع حياته ثمناً كى يكلمه الله » وبينما تكاد تؤخذ كمؤمن بالله

وباليوم الآخر وبرسله وكتبه بهذه الصوفية الوجودية العجيبة إذا بك تسمع من وجودى آخر كبير هو « سنستوف » صيحته التى تقول « إذا كنت تريد أن تكون وجودياً صادقاً فيجب أن تنبذ ظهرك الله والعقل وذلك أن البواعث الإنسانية لن تزدهر معهما » .

وتمسك رأسك من الصداع الذى ألم بها من جراء هذا التناقض العجيب الذى يدل على أن الوجودية مجرد لافتة يمكنك أن تحملها ثم تضعها على أى محل تشاء : تضعها على الحمارة كما تضعها على باب الكنيسة أو باب المسجد : وتكون النتيجة لذلك أنه إذا وجد اثنان من الوجوديين فستجدهما مختلفين فى الاتجاه أصلا وفرعاً وإذا وجد ثلاثة ازداد الخلاف ويمكنك أن تحصى المذاهب الوجودية بأن تحصى عدد أنصارها فى فجاج الأرض .

* * *

والسبب فى ذلك أن الوجودى يعبد هواه فهو قد يذكر الله صباحاً إذا وافق ذلك هوى فى نفسه فى الصباح ثم يكفر به ظهراً ويجد عنده ما يبرر به الاتجاهين وسيزعم أنه كان صادقاً مع نفسه . . مع ذاته . ومع الاتجاه الوجودى فى الظهر . .

وكل يوم هو فى شأن وسبحان من له الدوام .

* * *

إن الوجودية تقول إن الإنسان خالق نفسه . . . وذلك معنى واسع ينتشى به كل من فى قلبه مرض وكل من فى نفسه مرض وكل من فى عقله مرض . . إنها كلمات حادة كأسنة الحراب ولكنها لا تدل على معنى حقيقى لاترضى إلا أولئك المرضى الذين تستهويهم نشوة التعالى والعظمة والشعور بفخامة النفس حين يتصور كل منهم نفسه إلهاً ، وهكذا تصبح الكرة الأرضية جنة للمجانين حتى يصبح عدد سكانها آلهة بلا عباد ، ولا كتاب مقدس ولا ملائكة ، ولا جنة ولانار ولا وصاياولا دين.

* * *

صدام مع العقل

وإذا كانت الوجودية ليس لها لون خاص ولا قاعدة ولا توجيه ولا وصايا ولا حدود وإنما هى تختلف باختلاف أعوانها إلا أنها تكاد فى كل صورها تجمع على شيئين هما أنه يجب نسف العقل والدين ... عدا بعض بوارق عند « كيركيجارد » و « سبرز » تشير إلى وجود إيمان من لون خاص ،إيمان ذاتى منبثق من شخصية فردية لا ينطبق على الإيمان المعروف بأصوله المحددة .

فالعقل عند الوجودية ليس ديموقراطياً . بل إنه أداة أرستقراطية مشحونة بأفكار سادة أرستقراطيين هم الفلاسفة الذين عاشوا فى الأبراج العاجية لتغذية العقل بأفكار واتجاهات غير وجودية .

هذا العقل الذى يمسك بالعصا يلهب بها ظهر صاحبه إذا انحرف عن أوامره أو يوخزه باسم الضمير بإبرة من الداخل يعوق صاحبه عن الاتجاه الاختيارى الحر ويقف حائلا بينه وبين حريته ولا يدع الوجودى يعمل على تحقيق ذاته وفقاً لإرادة

حرة غير مقيدة بل العقل يلوى عنانه ويرغمه على النزول عند مقاييسه .

فهذا العقل الواعظ الذى قد يحلو له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقف كالجدار فى طريق الوجودى ومن ثم فيجب أن ينسف .

* * *

وكذلك الدين عند أغلب دعاة الوجودية إن لم يكن أكثرهم عدا من يؤمن بالله على طريقته الخاصة إيماناً قد يأتى مصادفة ولا يلزم صاحبه بتبعات ، فالدين عند الوجودية خرافة يؤمن بها الإنسان الجهول و يتلقى منها أوامر ينسبها إلى واعظ غير موجود وغير مرئى يسميه الله ثم يخر ذلك الإنسان فى حماقة ساجداً فى رهبة لذلك المجهول الذى خلقه خياله .

وإذا كان الله موجوداً فإن الإنسان هو الذى خلقه — تعالى الله — والإنسان الذى يريد أن يسير فى طريقه يجب أن يحيد عن طريق ذلك الإله الذى قد يمنعه من الاستمرار فى المسير ويقول له عند أى نقطة من نقط الطريق قف .

والوجودى لا يريد أن يتلقى أمراً من أحد ولو كان هذا الأحد هو الله .

والدين قاصر عن تلبية الرغبات الوجودية ، هكذا يزعم الوجودى مدعياً فى غرور صبيانى أن الدين محدود بتعاليمه أما الوجودية فانطلاق كامل إلى غير نهاية لأنها بلا تعاليم ولا وصايا أى بلا قيود .

* * *

ولن تستطيع أن تجادل الوجودية وتقنعها بوجهة نظر الدين أو العقل إذ أنك إما أن تتخذ براهينك من وحى العقل وهى لا تؤمن به وإما أن تجعل الإيمان نوراً تريد أن تهدى به السبيل وهى ضد هذا الإيمان ويمكنك أن تسأل الوجودى إذا كنت خالق نفسك أى صانع ذاتك وناسج اتجاهاتك فأى إرادة هذه التى تتدخل فى طريقك فتفرض على ذاتك وإرادتك وحريتك بالرغم منك ومنها ومن كل شىء حتى « الفيتو » ؟

ما هذه القوى التى تجعلك بالرغم منك تسير يميناً وقد كنت متجها شمالا؟

وإذا كنت صانع وجودك فهل تصنع رزقك وصحتك وتتحكم فى أجلك وموتك ؟. وتفرض على صديق أن يلقاك فى الموعد الذى تراه أنت وتعمل على تغيير الفصول وقصر الليل وإطالة النهار.

فإذا لم تكن قادراً على التحكم فى هذا الوجود فماذا بقى لك لتتحكم فيه .

الأهواء . . والشهوات وهواتف الغريزة . . ؟

وحتى هذه قد جربت مراراً أنك غير قادر دائماً على استغلالها وفق ما تشتهى .

فأى قوة هذه التى تعترض طريقك . . ؟ !

* * *

إن نظرية العداء للدين هى امتداد للنظرية النفسية التى وجدت بالتجربة أن الإنسان المغيظ المأزوم يصب جام غضبه على شيء ما يجد فى العداء له تنفيساً عن آلامه ويجعل هذا الشيء يحمل أوزار الفشل والعقد القديمة الدفينة .

وقد كان هتلر على علم بهذه النظرية فكان يعمد من حين إلى حين إلى إيجاد أعداء تصب عليها النازية غضبها فيشتد حماس أفرادها .

وعلى هدى هذه النظرية أرادت الوجودية أن تلهب ظهر أعوانها بالحماس فناصبت الدين والعقل العداء فتذكر لهم إنها أساطير غامضة تشل قوى التفكير الوجودى وتجعله يستسلم للمجهول بينما يجب عليك أيها الوجودى أن تكون حراً فى تحطيم كل قيد يحطم إنسانيتك ومن العار أن تدع العقل يعلمك بل لابد لك من تعلم نفسك بنفسك وممارسة التجارب الحية . . وليس من المهم أن تخطئ أو تصيب فهذا أمر اعتبارى بل

الخطأ نفسه يشعر الإنسان أنه موجود .

* * *

أما الدين فإنه يدفع إلى العدم لأنه يجعل الذات فى عبودية لله وفى هذا فناء لها فالله هو الذى يقدر ويفرض ويحرم ويعاقب ويحيي ويميت وليس عليك إلا أن تتلقى أوامره ، أو تسعى وأنت تلتمس منه أن يبارك مسعاك فيجب على الوجودى أن يتمرد على هذا كله . فلن يقبل أن يرفع يديه إلى السماء طالباً شيئاً أو نادماً مستغفراً ملتمساً فتح باب الرضوان .

وهكذا يذهب الجنين الذى فى بطن أمه يضرب جدران البطن وهو يقول هذا هو عالمى ، هذا هو وجودى فإننى لم أر وجوداً سواه ومحال أن يرتبط وجودى بوجود شيء آخر اسمه الأم لأن هذه الأم غير موجودة ودليلى على ذلك أننى لا أراها ولن أبرح مكانى هذا فيجب أن أرتب أسباب إقامتى فيه . وأن أنظم غذائى ورزقى من هذه الأحشاء والأمعاء .

وهكذا يظل الجنين يتخبط فى وجوده المزعوم حتى تلفظه أمه مشدوهاً من هذه الحقيقة الكبيرة التى كان يعيش داخلها وينكرها .

* * *

وفى بيت الدمية للكاتب النرويجى « هنريك إبسن » ما يجعلنا

نفهم أن المجتمع هو أكبر وهم وأضعف فكرة ، ذلك أنه ليس هناك مجتمع على الإطلاق وإنما هناك أفراد ، هم أنا وأنت وهو وهى وضع على هؤلاء لافتة وهمية كتب عليها « المجتمع » .

ومفهوم هذا الكلام إنه إنكار لوجود المجتمع وثورة عليه أى على نظمه ، فالوجودى يعيش من أجل نفسه وعلى الدنيا والناس والمجتمع العفاء ، فإذا عاش من أجل فكرة أو هدف أو حتى من أجل أم أو أب أو زوجة أو حبيبة أو ابن كان الوجودى خائناً لوجوده ، فالواجب تفتيت المجتمع وهدم البناء الضخم ونزع أحجاره وأبوابه وأخشابه ثم سنحقها سحقاً حتى تصبح ذرات وحتى تصبح كل ذرة منفردة بذاتها وفى هذا شعورها الأحمق بوجودها . لأن المجتمع كان يلغى شخصيتها ويتحكم فيها ويحكم عليها بالإعدام لأنه يدمج وجودها فى غيرها .

ويقول الفيلسوف الروسى « بردیانف » أن المجتمع أضعف من أضعف حيوان تسحقه ببعض قدمك .

فبديهى أن يكون المجتمع أضعف من الفرد ذلك لأن المجتمع فكرة مجردة وهو بكل ما فيه لا يعدل من القيمة الوجودية شخصية فأر لأن الفأر الصغير يصرخ ويئن ويتلوى ويعيش ويموت ويلد ويتكاثر ويقاوم الموت ويغالب الفناء ويرث صفات أجداده ولكن المجتمع لا يبكى ولا يئن ولا يتوجع

ولا يورث . وذلك لأن المجتمع مجرد فكرة .

والوجودية تقف وجهاً لوجه فى كثير من اتجاهاتها ومراميها فى عداء مع الفلسفة وذلك أن الفلسفة لون عميق من ألوان تفكير ذلك الشيطان الرجيم المسمى العقل ثم إن الإيمان بالعقل قد ينتهى بالمرء إلى الإيمان بالله أى بالعدم لذلك فالوجودى لا يؤمن بالفلسفة إلا أن تكون فلسفة مادية تقطع الخيوط بين الناس وبين كل ما هو معنوى أو مقدس ، فإن وجدت مثل هذه الفلسفة فإن الوجودى يؤمن بها بحذر فالوجودية لا تعرف الثقة المطلقة إلا بنفسها وذلك أنها ترى أن عالم الفكر ملىء بالمزالق وأنك قد تسير معه فى طريق فينتهى بك من حيث لا تحتسب إلى طريق آخر .

وإذا كان الوجوديون مع عدائهم لشىء ما لن يحجموا إذا دعتهم الضرورة إلى الأخذ به رياء إلى الحين الذى يحققون فيه مأرباً لهم فإنهم مع عدائهم للفلسفة يدعون أن سقراط كان وجودياً أى أنه أول من فلسف الوجود وهى ألفاظ يخلعونها بالأسلوب الذى يرضيهم . ألم يكن سقراط يدعو الإنسان إلى أن يعرف نفسه بنفسه ؟ وهذه هى الوجودية ، هذه الكلمات تكاد تجدها على لسان كل صغار الشباب المرتدين ثياب الوجودية ، وهو تأويل كاذب ذلك أن سقراط كان يدعو إلى

الفضيلة والوجودية لا تدعو إلى شيء ، بل تدعو إلى السلبية والوجوديون يفخرون بأن كيركجارد أراد بدعوته أن يوقظ النائمين فى أحضان العقيدة — « وسارتر » قطب الوجودية فى هذا الزمان يضع قصصاً وجودية يكشف فيها شخصياته ويفضحهم ويدعهم فى عرض الطريق عرايا من كل شيء ومن كل خلق أو فضيلة ثم يتولى عنهم بلا توجيه وحتى بغير كلمة عزاء .

سيقولون إنه كالطبيب يكشف عن مرضاه فليس فى تعريتهم حرج وسنقول لهم إن الطبيب يكشف عن مرضاه ليعالجهم دون أن يأخذهم عرايا إلى عرض الطريق ويقرع حولهم بالجرس ويقول لهم فى فضيحة من الملأ هاأنتم أولاء على حقيقتكم فانطلقوا لقد نزعت عنكم الثياب وكشفت لكم عن حقيقتكم عن وجودكم فلا تخجلوا من عوراتكم .

لماذا إذن الاحتفال بهذه التفاهات؟ إن هناك أقوام مصابون بألوان أخرى من الشذوذ وقد جعلوا من الشذوذ دعوة لهم فلماذا يكون لكيركجارد وسارتر أنصار ؟ ولا يكون لهم أنصار ؟ وهل إذا كان سارتر هذا بوذياً أو إندونيسياً ودعى بهذه الدعوة هل كان يجد من يردد هذه الدعوة هنا من ورائه أم أن هذه الدعوة جاءت من بلاد يحب أناس أن يربطوا أنفسهم بعجلتها ورحم الله زمناً كان كل ما يرد من هذه الجهات يلقى التأييد بلا مناقشة ولا جدال .

هل الوجودية رجعية . . أم تقدمية ؟

ترفع الوجودية فى يدها سكيناً لتقطع بها كل يد تحاول أن تمتد إليها لتعاونها فهى تنسف كل نشاط جماعى ، وهى بذلك تعتبر روحاً انفصالية تقوم على الأنانية . . . ولها مع ذلك بعض الفوائد فى استثارة النفوس الخامدة الضعيفة ، وذلك بما تثيره من قلق يحفز إلى العمل ولكن أى عمل هذا الذى تدعو صاحبها إليه . . ؟ إنه عمل بلا هدف ولا غاية . . وأى خير فى أن تجد عربة تائهة فتدفعها إلى الصحراء تجرى بلا هدف . . ؟

إن العمل الصادق لا يمكن أن يكون فى غنى عن المعاونة والانتفاع بالخبرة التى عاناها الآخرون وإذا كان هدف الوجودية إشعار كل إنسان بذاته ليدرك أنه موجود فالإنسان موجود بالطبع دون حاجة إلى أن يقرص نفسه ليتألم فيعلم أنه موجود ودون أن يضرب رأسه فى الحائط ليسيل دمه فيدرك أن هذا الدم دمه وإذن فهو موجود . . إن عمله يعلن له وللدنيا نوع وجوده وإلا فأين ذهبت إذن ملايين السنين التى مرت بالإنسان منذ وجد على الأرض قبل أن ينادى كيركجارد بالوجودية . . ؟ هذه الأجيال الطويلة التى مارس فيها الإنسان الوجود وبنى الحضارات وأوجد القيم ومارس الألم والأمل واليأس

والنجاح والنصر والهزيمة فى كل الصور والألوان ألم يكن هذا كله وجوداً ؟ أم أن الوجودية فقط أوجدت الإنسان على الأرض منذ مائة عام فحسب ؟

لقد كان الإنسان يمارس وجوده دون أن يحبس نفسه فى قمقم ويضع القمقم فى النار ليلتهب وتلسعه جدرانه فيصيح وسط النار إننى موجود لأننى أحس النار .

والوجود يجب أن يكون قائماً على تجنيد الإنسان لنفسه فى مشاركة المجموع فى دفع عجلة الوجود إلى الأمام فى الطريق الذى وضح لكل ذى عين أنه يؤدى بالبشرية إلى الخير العام وليس للوقوف ولا للرجوع إلى وراء أو الانتكاس . وإذا كانت الوجودية تحتقر العقل فهى إذن تخالف نفسها ذلك لأن الفكرة الوجودية سواء كانت سلبية أو إيجابية فهى فكرة قبل كل شىء صنعها عقل بشر أى أنها حركة عقلية .

إن الوجود متماسك تماسك الآلة ولكن الوجودية تفك أوصال هذه الآلة مسماراً مسماراً ومحوراً محوراً ، وترمى كل جزء فى ركن وتقول له أيها المسمار لقد أنقذتك لأنك كنت ضائعاً فى هذه الآلة لا شخصية لك فيها أما الآن فأنت مسمار لك شخصية ذاتية . . وذلك هو العدم لأن المسمار لا قيمة له إلا فى المعاونة على دوران الآلة والآلة هى مجموعة من المسامير وقطع الحديد،

فلو تفككت فقد انعدمت وانعدم بالتالى كل جزء من الأجزاء فهو يستمد وجوده من وجودها .

* * *

والوجودية فى معرض الحديث عن الحب تقول إن الحب لا يجب أن ينتهى إلى زواج وقد تقدم الكلام عن هذا ، وهذه ولاشك جريمة إنسانية مهما خلع عليها الوجوديون من أسماء . والكلمات الهستيرية التى تقول إن الخطيئة من طبيعة الإنسان فلا حرج عليه من ممارستها هى اتجاه هدام يخالف أى مبدأ إنسانى وأنا أتجنب أن أقول أى مبدأ دينى أو عقلى حتى لا يضع الوجوديون أصابعهم فى آذانهم فإن العفريت الذى يفرون منه هو الدين أو العقل .

لذلك أقول إنهم ليسوا إنسانيين بعد أن أعلنوا أنهم ليسوا مؤمنين ولا من أنصار العقل فماذا يكونون إذن ؟

ماذا يكون الذى يتحلل من نظام الأسرة التى ولد فيها .؟ الأبوين الذين أوجداه .؟ ولا يحترم المجتمع الذى يأويه ولا العقل الذى يحميه ولا النظام الذى يعيش فى كنفه وظله .

فهذا المجتمع أحاطه بكل نظم الأمان والاطمئنان ورعاه قبل أن يولد فلا يحق له أن يحاربه أو يقف منه بعيداً تحت تأثير فكرة سلبية أو على الأقل غير عملية .

نحن لا ننكر أن الإنسان يجب أن تكون له شخصية متميزة لا تذوب ولا تتلاشى وإنما يجب أن تنشأ هذه الشخصية فى الإطار الاجتماعى والأخلاقى المعترف به .

وإذا كانت الحياة الإنسانية كنهر ينساب من الأزل إلى الأبد وأن كل إنسان يولد فى سفينة تسير فى هذا النهر فإنه من الجنون أن يفكر أحد ركابها أن يعارض سيرها .

إننا لا نمارى فى وجود فكرة الإنسان ولكن وجوده هذا إنما يشبه وجود قطرة الماء فى النهر أو الثمرة فوق الشجرة وأن من عيوب النظرية الوجودية الفردية أن ما يراه الإنسان أنه حق قد يراه الآخر على نقيض ذلك لأنه لا توجد مقاييس مشتركة معترف بها .

وإذا كنا نناقش الوجودية من وجهة نظر الدين أو الأخلاق فليس معنى هذا أننا نقف جامدين فى تعصب ضد أى فكرة جديدة ذلك أن الدين الحق من المرونة بحيث يضم ويتسع ويخلع من تقديره على كل فكرة بنائية .

كما أنه ليس من القول الجدى ما يذهب إليه البعض من أن الوجودية قد تهدى إلى الإيمان ، ذلك أن الإيمان فكرة وعمل ، والعمل له تعليمات ونظم قررتها الأديان ولابد من الأخذ بها ليكون الإنسان مؤمناً ، فأنا لا أكون مؤمناً بحق الإنسان فى العمل ثم لا أعمل أو أحترف البطالة .

وقد سبق أن ذهبت فى بعض أقوالى إلى أن من محاسن الوجودية بجانب ما لها من أضرار هى أنها تجند الإرادة الإنسانية

لتنفيذ فكرة فلو اعتنق الإنسان الفكرة الدينية المرنة أو الأخلاقية المثالية ثم ذهب يجند كل إمكانياته فى تنفيذ ذلك لأمكن أن نطلق على هذا الاتجاه اسم الوجودية الأخلاقية ولكنت على هذا الاعتبار أول راغب فى اعتناق مذهب هذه الوجودية .

فأنا لست متعصباً ولا جامداً فى نظرتى إلى الفكرة .

* * *

ولكن الواقع ينفر الإنسان من أن يسكت عنها ذلك لأنها على هذا الوضع القائم نوع من الضلال البعيد ، تصور شخصين أحدهما يجد رغبته الوجودية فى أن يتجه شمالا والآخر جنوباً والجيش لا يكون قوياً إلا بمقدار تجميع جنوده فى اتجاه واحد مدروس من قبل وهذا لا يمنع أن يكون لكل جندى رتبته وشخصيته وفى هذه الحال سيزداد شعوره الوجودى لأنه يستمد قوته الوجودية من قوة الجيش فالوجود القوى يكون بجندى فى جيش قوى والوجود الضعيف يكون بجندى فى جيش ضعيف منحل مفكك .وكذلك المجتمع سواء بسواء ،

وهذه أيضاً هى روح الإسلام وروح كل دين .

فمن المحال إذن أن تكون الوجودية فكرة إنسانية تستهدف خير البشرية ، لأنها تخرج المجتمع والنظم المثالية من حسابها ، وتحبس كل إنسان داخل قوقعة مغلقة بالأنانية لتمارس من الداخل اتجاهاتها الفردية ، منتشية بالألم الذى ينعش قواها كما تنعش المخدرات من يتعاطاها ، والوجودية تحرص على

القلق ، ولا يمكن مع القلق الصبر على البناء ، فلا يوجد عمل سليم تم تحت تأثير قلق محموم ، فالأعمال الناجحة تؤدى فى شعور بالثقة والاطمئنان دون جلد النفوس بالسياط لتعمل فى ألم وخوف وقلق من السياط المقلقة ، ولذلك فإن الوجودية لا تساهم فى بناء الحياة التقدمية لأنها بلا أهداف ، ولأنها تقف على البعد تطل من نوافذ القواقع على قافلة البشرية وهى تسير ، وقد تلعن بعض الأحداث أو تباركها دون أن تساهم فيها لأنها قررت تعطيل قوى الإنتاج البنائى ، فالعقل تركته يترهل ويشيخ وشاحت عن المثاليات بجانبها بينما الإسلام يحث أنصاره على العمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) إذا بالوجودية تجعل كل جهد غير شخصى جهداً ضائعاً بينما التفنن فى شذوذ الأزياء والارتماء على مقاعد الحانات والكاباريهات قد يكون اتجاهاً وجودياً فالوجودية مسرحية هزلية لا تهدف إلى تسلية الجمهور وإنما يقوم بها ممثلوها تعبيراً عن نزعات نفوسهم.

ثم إن الوجودية متشائمة لا مستقبل لها لأنها لا تزرع الأمل فى النفوس فهى سرطان يمتص دم المجتمع ويهدده بالفناء دون أن تعطى شيئاً فى نظير ما يهيئه لها المجتمع من حماية بل هى تلعن ذلك المجتمع وتقطع اليد التى تحسن إليها فالإنسانية ليس فيها متفرجون وكل من لا يعمل لها فهو عدو لها .

الوجودية .. والتشاؤم

الوجودية ترى أن الإنسان خلق ليتعذب ، وأنه وجد نفسه وسط قطيع يساق بينما تلهب ظهوره بالسياط كلما توقف ليلتقط أنفاسه تحت أشعة الشمس الحارقة وفوق الشوك الذى يدمى قدميه .

وقصة سوزيف اليونانى تقول إن الآلهة كانت قد حكمت على سوزيف بأن يدفع أمامه حجراً إلى أعلا الجبل ، وكلما بلغ القمة انحدر الحجر إلى السفح فتأمره الآلهة بالعودة ليدفع الحجر إلى القمة من جديد ثم يعود الحجر فيسقط ويجرفه أمامه وتسيل دماؤه ويعود هو إلى دفعه دون أن يعرف لماذا يدفع هذا الحجر ولا لماذا كل هذا العذاب ... هكذا يقول وجودى مصرى .

ثم يجيب بأن الآلهة عذبته كل هذا العذاب لأنه أخطأ بينما يرى أن الإنسان الحر هو الذى يخطئ أما العبد فإنه لا يخطئ لأنه لا يختار ما يفعل وإنما يفعل ما يختاره له سيده .

* * *

والواقع أن هذه القصة بعيدة كل البعد عن حقيقة الحياة إذ يفهم منها أن الخطأ مقدس وأن عدم الخطأ رذيلة ، ولا يوجد دين من الأديان يعصم الإنسان من الخطأ وإنما عليه ألا يبحث عن الخطأ ويمارسه مختاراً راضياً وإنما إذا مارسه بسبب ضعف أو جهل ثم علم أنه أخطأ فمن الخير ألا يعود إلى اختيار الخطأ بل يعود إلى الحق ، أى إلى الله فيجد الله تواباً رحيماً لا يحاسبه على الخطأ الذى تاب منه كما تفعل الآلهة فى قصة سوزيف الخرافى .

والإنسان لم يخلق كما يقول الوجودى ليقاسى العذاب ولا شيء إلا أن يدفع الحجر إلى أعلا ويسقط عليه الحجر ويجرفه إلى القاع تلهبه السياط ليعود فيدفع الحجر من جديد ، ويظل دائماً أبداً فى هذه الدوامة التى لا تنتهى من اللعنة الأبدية.

هذا هو التشاؤم الذى تخيف به الوجودية أنصارها من الله الرحمن الرحيم ، ومن الحياة ذات الألوان المتعددة التى تزخر بالحلو والمر ، وأن المر وجد فيها ليعرف الناس الحلو .

لم يخلق الإنسان ليصعد الجبل وهو يدفع الحجر ، وإنما خلق ليصعد الجبل على مهل وروية وهو يمهد طريقه أثناء الصعود لمن يأتى بعده ويجد أثناء الصعود على الجانبين واحات وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأشواك عليها حراس يطلبون إليه أن

يتجنب طريقها وهؤلاء الحراس هم الرسل والفلاسفة والتجارب الشخصية والناس فى طريق الصعود متعاونون فلن تسقط الأحجار إلا على رأس من يتجنب سبل الجبل الممهدة ويذهب وحيداً من وراء الحراس .

فالخطأ ليس لعنة أبدية ، وإنما درس وإرشاد ، والله لا يحاسب على الخطأ ولكن على الإصرار عليه ، فالإنسانية لم تظلم سوزيف وإنما سوزيف الوجودى هو الذى اختار أن يظلم نفسه .

وليس الحر كما تقول الوجودية هو الذى يخطئ وإنما الحر هو الذى إذا أخطأ يقول فى شجاعة إننى أخطأت ، ويجند إرادته للعودة إلى الحق فيكون وجودياً صالحاً لأن الحرية عمل وليست استسلاماً للرغبة لأن الاستسلام لرغبات الذات أمر سهل.

ألوان من الوجودية

تجادل الوجودية عن نفسها بمجموعة من التعبيرات الحادة المتعددة الجوانب التى تحمل أكثر من معنى والتى تفهم على أكثر من وجه كأنما تشعر بضعفها عن مواجهة الحقائق فتتوارى وراء هذه التأويلات فأنت تسمعها تردد كلمات الذات والقلق والمسئولية .

والذات هى المحراب الكبير الذى تحوم حوله المعانى وتفرش له الطرق وتحرق له البخور ، هذه الذات يقول عنها الوجودى إنها تائهة فى خضم الحياة اليومية الرتيبة ، فيجب عزلها لتتعرى فى عزلتها عن نفسها على حقيقتها بلا رتوش ولا زخرفة ، وعليها بعد ذلك أن تهاجر من دنيا الناس إلى دنياها ، وبذلك تحطم القيد الذى ظلت ترسف فى أغلاله زمناً طويلا وتصبح إلهاً لا يعرف الرحمة فى تنفيذ أهدافه ، وبذلك تتحقق معجزة الوجود .

ويقول جان كانابا فى نقده للوجودية . إنه لا يمكن تغطية النزعة الإنسانية بالفلسفة الوجودية لأن ذلك العمل لن يكون والحالة هذه إلا تمويهاً ولكى تكون النزعة الإنسانية صحيحة يجب أن يكون هدفها الإنسان نفسه ، الإنسان المطلق . أما الوجودية فتجعل الإنسان فى خدمة الذات أى أنها تعدم

الإنسانية وتسميها وجوداً .

* * *

والمسرحيات والقصص التي يؤيد بها « سارتر » الاتجاه الوجودى الحديث تدور كلها حول إظهار الحيرة والاضطراب : إزاء عالم يقال إنه خلق بلا سبب ، وإنه تيه مطلق والإنسان عليه في هذا التيه أن يكتشف ذاته . وحبكة كل قصة هي في هذا الاكتشاف وسد المنافذ أمام الإنسان حتى لا يشترك في أى عمل عام أو ذى فائدة جماعية وتثبيط الهمم نحو أى حركة بناء ، إذ ما معنى البناء فى عالم غير موجود ! ؟

وكيف تترك الموجود فعلا وهو الذات لتعنى بما هو غير موجود وهو المجتمع وتنتهى القصص والمسرحيات الوجودية دائماً بأنه لا خير فى عمل شىء .

* * *

وبينما نجد أن أبسط مبادئ الحكمة تستهدف إيجاد حل لكل مشكلة من مشاكل الإنسان إذا بالوجودية فى يأسها التام ترى أنه لا خلاص للإنسان من مشاكله وأنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً فالإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران ما دام على صلة بالمجتمع ذلك لأن المجتمع كالبحر تأكل أسماكه الكبيرة أسماكه الصغيرة .

والمجتمع بناء مفكك منهار وتضم هذه الأجزاء فى قهر وإرغام مظاهر البطش والجبروت فالإنسان على هذا الوضع فى خسران دائم ولعنة أبدية

* * *

ونظرات الوجودية إلى التاريخ

هى أنه لا وجود للتاريخ . لماذا ؟ وكيف ؟ لأن التاريخ مرآة للمجتمع وقد صنعته البشرية على هواها فى صور شتى ، والعالم كله باطل الأباطيل فهو كساقية جحا التى تأخذ من البحر وتلقى فى نفس البحر . وبينما يقول الوجودى الكبير « سيمون دى بوفوار » إن الإنسان مقضى عليه بالإخفاق فى كل شىء إذا « بسارتر » يقول إنه قد يحدث أحياناً نجاح وقتى نسبى فى حالة تغلب وعى ذاتى ناضج على سواه .

أى بصريح العبارة إنه بالاتجاه الوجودى يمكن للإنسان أن ينقذ بعض ما يمكن إنقاذه إذ يحقق الوعى الذاتى له ما يعجز عنه المجتمع فى عالم خلق ليكون خسراناً فى خسران .

ولا تعجب حين ترى بالرغم من ذلك أن الإنسانية حققت فى كثير من أطوارها كثيراً من الأمور المثالية والقيم النافعة وذلك لأن الوجودى لن يعنى بهذه المثاليات والقيم ولن يعتبرها نجاحاً أو كسباً إذ ما قيمة هذه الإشعاعات الضئيلة فى عالم

كله باطل الأباطيل ولا منفعة تحت الشمس فالكون يدور حول نفسه وما تحسبه أنت تقدماً ليس هو إلا تغييراً أو اختلالا فى الوضع أثناء الدوران .

ولعل هذا قريب من مذهب البراهمشاريا عند الهنود .

فهذا المذهب الهندى هو أن فساد الوجود كله قائم على الغريزة الجنسية فلو تخلص الناس من الدافع الجنسى لتخلصوا من كثير من الشرور ، والطريق إلى ذلك هو تجنب الطعام الزائد عن الحاجة ، لأن هذا الزائد هو الذى يريد أن ينصرف عن طريق الجنس ، فلو أجعت نفسك فإنك تميت الدافع الجنسى ، ومن أجل هذا كان غاندى يطعم قليلا من اللبن وبضع بلحات يقمن أوده ولا يهيجن الجنس .

وقد تسأل فى هذا المضمار سؤالا هو ما مصير البشرية إذا أضرب الناس رجالا ونساء عن التناسل ؟

والجواب عند الهندى البرهمشارى

هو أنه لا شأن لك بهذا فإنك لم تعط على نفسك صكاً أنك مسئول عن حفظ النوع .

وكذلك الوجودى يغل يده عن أى منفعة أو نشاط جماعى لأنه لا يعطى المجتمع شأناً إيجابياً ، بل هو عنده كما تقدم خسران وضلال فعليك ذاتك ، عليك نفسك فحسب وهذا

هو البريق الذى يخطف فى الوجودية أبصار الشباب والمتعبين فيجدون فى التحال من الواجب عبادة مقدسة فى محراب الذات .

فالمرأة إذا انصرف عنها زوجها لتحصيل رزق من أجلها وكانت وجودية وأحست بسبب انصرافه عنها جوعاً عاطفياً ، فلا حرج عليها أن تشبع هذا الجوع ، والوجودية تشجعها على هذا المنزع فى لحظات الطيش وسيطرة الهوى وهى اللحظات التى تجند النظم الاجتماعية والأخلاقية والدينية نفسها لإنقاذ الإنسان منها وهدايته سواء السبيل ، ولكن الهاتف الوجودى يصرخ فى أعماقها إنك لم تخلقى من أجل كبت العاطفة وحبس الرغبة بتأثير ما يزعمون أنه الواجب ، إن وجودك هو كنزك الأوحد فلماذا تدفنين هذا الكنز تحت أحجار القبور الاجتماعية .

وتنتهى بأن تنطلق مع هواها .. مع وجودها .. مع ذاتها تحطم قيد الزوج والولد وما يسمى الشرف . وهذا هو لون من القصص الوجودى .

* * *

لقد كنت أود أن تكون مهمة الوجودية عكسية لما سبق فيهتف الهاتف الداخلى بالحقائق التى تصير إليها الأمور بعد أن تكتشف هذه المرأة حقيقة الهوة التى انهارت فيها وبعد أن تندم على ضياع زوجها وشرفها وأولادها .

* * *

ويبدو أن هذه هى الحقيقة التى ذهب إليها الكاتب

المصري الوجودي فى كتابه « الوجودية » فاتخذ من زليخا امرأة العزيز مثلا للوجودية حين راح الهاتف الوجودى يصرخ من أعماقها فى وجه يوسف . هيت لك ـ بعد أن غلقت دونه الأبواب ولم يعلق هذا الكاتب على موقف يوسف الصديق منها لامتناعه عن ممارسة ذلك الفعل فإذا كانت زليخا وجودية بالنسبة لنفسها فلماذا لم يعتبر يوسف وجودياً لأنه أطاع الهاتف المنبعث من أعماقه والذى يعصمه من طاعة النفس والهوى ؟

إن يوسف الصديق ليس وجودياً . . !!

وامرأة العزيز وجودية مائة فى المائة .

وحسب الوجودية هذا فإن القول يغنى عن كل تعليق .

* * *

والوجوديون يعترفون بأن الوجودية قد تنتهى بصاحبها إلى التعب أو العذاب ولكنها تقول بأنه لا مفر من ذلك فإن هذه هى الضريبة التى يتحملها الإنسان ليكون حرا، على أن هذا الذى تسميه حرية ما هو فى واقع الأمر إلا خضوعاً مطلقاً لأهواء النفس وطاعة للصنم القابع فى داخل الذات .

والوجودية لا تحفل بالتاريخ لأنها لا تعترف به كما ذكرنا ولأنه نظام اجتماعى يسجل نفسه متطوراً وفقاً لفروض اجتماعية رتيبة أو فجائية ولكنها أى الوجودية تعترف بوجود أناس يصنعون التاريخ بأن يملوا عليه اتجاهاتهم الذاتية وهى قيود تفرض على الغير

الوجودى . . والحياة العامة

الوجودى لا يذكر الحياة الاجتماعية تحت اسم المجتمع ، إنما يطلق عليها الناس الآخرين ذلك لأن الحياة عنده مجرد ناس كل منهم يدور فى فلكه منطوياً على ذاته وفى داخله مجموعة من الرغبات المتناقضة التى تمزقه وتدعوه إلى محاربة سواه فهى إذن تجسيم لمركبات النقص وازدراء للإنسان .

ومن الطبيعى أن الوجودى لا يسم نفسه بهذه السمات ، وهذا الشعور لابد أن يصاحبه احتقار للغير ، وهذا الاحتقار يزداد كلما ازداد الشعور بالذات وازدادت تبعاً لذلك عزلته الاجتماعية وهذا الوضع سينشأ عنه استعلاء للأنانية وسيطرة للكبرياء الذاتية وجمود للقلب حتى لقد يكون من الخسة أن يساعد إنساناً آخر أو يعينه لأن هذا معناه إقحام نفسه فى وجود غيره وينتهى الأمر إلى التخلى عن كل صراع أو نضال يرجى من ورائه تحويل الإنسان ولو قليلا عن محيط الدائرة التى حبس نفسه فيها ليدور فى محيطها مغمض العينين يظن أنه

منطلق فى الفلك الوجودى ، ولن يهتم الوجودى بالبحث عن سند دينى أو عقلى أو اجتماعى يبرر به تصرفه .

* * *

كما أن الوجودى لن يتحد مع غيره من الوجوديين ، إذ لا صلة تجمع بينهم كهذه الصلة التى تجمع أبناء النادى أو الهيئة أو النقابة الواحدة ، إنما هم مجرد ناس كل منهم حبس نفسه داخل قوقعته ، ولذلك تعلن الوجودية عن نفسها إنها ليست ديناً ولا فلسفة ولا مذهباً ، ولا هيئة ولا شيئاً مما يقرب من ذلك ، وعلى هذا فإنه ليس للوجودية وصايا ولا نصائح ولا صلاة ولا ارتباط بشىء ما ، فهم والحق يقال يطلقون على أنفسهم اسماً يخالف حقيقتهم ، فإن هذا نوع من الموت الاختيارى .

ولست فى ذلك مغالياً لأن التخلى عن الكفاح فى سبيل المجموع هو تخل عن الحياة ، ثم إن العزلة سلاح يطعن به الاعتزالى نفسه ويلزم أن يحمى المجتمع على هذا الأساس الوجودى من نفسه ، فإن المريض ليست له حرية ترك نفسه بلا علاج مع ما يسببه للغير من عدوى ، وإذا أراد إنسان أن ينتحر فإن المجتمع يحاول أن يحاسبه ويمنعه من ذلك غير ملق بالا إلى صخبه وادعائه الحرية فى الانتحار ، ذلك لأنه مدين

بوجوده لهذا المجتمع فيجب أن يعمل من أجله .

* * *

ولما كانت الوجودية تدعو إلى العزلة فهى على هذا الأساس تدعو إلى الإضراب عن العمل من أجل الحياة ، وهى حرية سلبية لا يجب أن يترك بريقها يخاب أنظار الكسالى والمنحرفين والذين يعانون مركبات نفسية مختلفة .

إن الوجودية يمكن أن تسمى العاطل الشرير قديساً وجودياً ، وسارتر يختم نشيده فى تقديس الذات والانفرادية بقوله إن من لا يستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان رعديد .

* * *

فأنت ترى أن الحرية الوجودية هى أسطورة خرافية هدامة تعوق الإنسان عن الارتقاء على أى صورة من الصور ، بل تقدس التفاهات وتشد الإنسان باستمرار إلى الانهيار .

إن الحرية التى تنادى بها الوجودية هى عملية عزل مستمر وانفصال عن المجتمع الإنسانى وما دامت الوجودية ترى أن الإنسان مقضى عليه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الأباطيل فما معنى هذه الحرية التى تنادى بها إلا أن تكون دعوة إلى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة الملازمة للوجود .

فى الأدب الوجودى

لما كانت الوجودية بلا تعاليم ولا وصايا وليس لها دستور مكتوب فإن المنقب وراء هذا المذهب لا يجد ما يروى غلته إلا فى الأنماط المختلفة من القصص الوجودى حيث يعنى الفلاسفة الوجوديون ببث أفكارهم فى هذه القصص ذات الطابع العجيب وكلها تدل دلالة واضحة على عدم إنسانية هذا المذهب على الإطلاق .

ذلك أنه ما دامت هذه القصص تعبر عن الأدب الوجودى فإن هذا التعبير يكاد ينحصر فى ألوان شاذة من الناس تأتى أفعالا شاذة كما يتضح من قصة الغريب تأليف ألبير كامو .

والقصة استعراض لحياة إنسان وجودى . حياة ضائعة من أولها إلى آخرها ، وإن كان صاحبها قد ذهب منطلقاً من كل قيد يعب عبًّا من شهواته ولا يبالى موت أمه ولا يبالى حتى بالجريمة نفسها حين يرتكبها بلا سبب ولا موجب . . تلك هى شخصية « مورسو » بطل القصة الذى كان شعاره أخذ الحياة بلا مشقة وفى استهتار مع عدم التقيد بأى قيد اجتماعى أو إنسانى .

إن هناك بعض النقط التى يجب أن توضع على حروف

هذا المعنى ، إن ألبير قد أسمى قصته تلك بالغريب ، وهو يعنى — كما يبدو — أن بطل قصته « مورسو » عاش غريباً فى مجتمع لا يؤمن بتقاليده .

فماذا كان يريد مورسو بطل قصة الغريب ؟

هل كان يريد من المجتمع أن يسجد لوجوديته فلا يؤاخذه على ما جنت يداه ! ! ؟

لقد عاش مورسو فى الأرض فساداً وعاقر جميع الموبقات وانتهى إلى أن قتل إنساناً فسيق إلى المقصلة فهل أحس ندماً أو اتجه إلى خالق الوجود يطلب المعونة ؟ إنك ترى الجواب فى قول بطل القصة فى نهايتها .

« لقد كنت على صواب — ولا أزال على صواب » .

فما هو هذا الصواب الذى يتمسك به ذلك البطل الوجودى ؟

فلنذهب إذن مع القصة قليلا لنستمع إليه يقول فى البداية :

اليوم ماتت أمى . . أو أمس . . لا أدرى لقد تلقيت برقية من الملجأ نصها « أمك ماتت . . الدفن غداً . قلوبنا معك »

وكانت أمه فى ملجأ العجائز فى « مارنجو » على مسافة ٨٠ كيلومتراً من بلدة الجزائر فيضطر إلى السفر لشهود جنازتها فيذهب إلى الملجأ متأففاً مما عانى من وعثاء الطريق، ضيقاً صدره من العجائز المرضى فى الملجأ ، وهم يتحدثون فى

جماعات صغيرة ، وعند باب الغرفة ، التى سجن فيها جثمان أمه غادره المدير قائلا « إننى أتركك يا سيد مورسو فإننى أفترض أنك تريد أن ترى أمك . . وهنا يصف مورسو حقيقة شعوره فيقول . . فوقفت دون أن أقول شيئاً ، فيعود المدير قائلا سأكون فى مكتبى وتحت تصرفك ، ولقد حُدد الدفن مبدئياً فى الساعة العاشرة صباحاً إذ اعتقدنا أنك تستطيع هكذا أن تقضى الليل بجانب الراحلة ثم يقول المدير كلمة أخيرة ، يبدو أن والدتك قد أعربت كثيراً لزملائها عن رغبتها فى أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية .

* * *

وهنا يظهر استياء مورسو من أن تفكر أمه فى أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية فهو يقول لنفسه . . إن أمى لم تفكر أبداً طيلة حياتها فى الدين . . ثم يصف مورسو كيف قضى ليلته إلى جانب أمه .

« دخلت الغرفة وكانت مضيئة جداً . . مطلية بالجص ، مشتملة على قطعة كبيرة من الزجاج أعدت للأوانى . وعلى بضعة كراسى وحوامل خشبية قد وضع على حاملين منها فى وسط الغرفة تابوت عليه غطاؤه ، وبالقرب من التابوت كانت هناك ممرضة عربية فى زيها الأبيض قد غطت رأسها بمنديل

زاهى اللون ، وفى هذه اللحظة دخل البواب من ورائى وقال فى شىء من التعثر . . يجب أن أفك مسامير التابوت حتى تستطيع أن تراها ، وعند ما اقترب من التابون منعته .

فقال لى . . ألا تريد ؟

قلت . . كلا

فتوقف وشعرت بالارتباك إذ أننى أحسست أنه ما كان يجب أن أقول هذا . .

وبعد لحظة نظر إلى وسأل : لماذا ؟

ولكن بدون لوم ، وكان لا يبغى سوى أن يعلم فقلت : لا أدرى وعندئذ أخذ يعبث بشاربه الأبيض

* * *

وتمر ساعة من هذا الليل وهو فى غرفة أمه المسجاة التى لم يشأ أن يرى وجهها قبل أن يواريها التراب ، وهو يشعر بالضيق والقلق . . « وأخذ زنباران يطنان على اوح الزجاج وأحسست بالنوم يأخذنى فقلت للبواب دون أن ألتفت إليه ، أمنذ أمد طويل وأنت هنا ؟ فأجابنى على الفور منذ خمس سنين » .

* * *

ويدع الجثمان المسجى ويذهب فى ثرثرة طو يلةمع البواب

لقطع الوقت فيخبره البواب عن كثير من تاريخ حياته وتهم زوجة البواب أن تمنع زوجها من الاسترسال لوقار الموت ، ولكنه يقول لقد وجدت أن ما يقوله البواب حقيق وشيق .

« ودخلت الممرضة وقد تكاثف الليل فأدار البواب مفتاح الكهرباء وبهر عيني انبثاق النور ، واقترح على البواب أن يحضر لى كوباً من القهوة باللبن ، ولما كنت أحبها كثيراً فقد قبلت ، وأحببت عندئذ أن أدخن ولكنى ترددت لأنى لم أكن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمى ؟ . وفكرت فوجدت أنه ليس لذلك أى أهمية . »

* * *

وانتهى به الأمر إلى مشاركة البواب التدخين أمام الجثة حتى أنهما بعد قليل من الوقت وضع كل منهما مقعداً على جانبي التابوت وكل منهما فى مواجهة الآخر وراحا يثرثران فأغرى ذلك الممرضة أن تنسى هى الأخرى الوقار الواجب للموت فتشغل نفسها بأشغال الإبرة .

* * *

وحين ينتهى الليل تحس بسخرية مورسو ممن جاءوا لمشاركته فى الجنازة وقد احتملوا كل عناء رغم تقدم السن بهم وما حل بأكثرهم من مرض فهو يتأمل وجوههم فى سخرية قائلا :

وعندما جلسوا نظر أغلبهم إلى وهزوا رؤوسهم فى ارتباك ، فى حين أكلت أفواههم الخالية من الأسنان شفاهم وهم يهزون رؤوسهم ، وأحسست إحساساً مضحكاً وهو أنهم جاءوا ليحكموا على .

* * *

فأنت ترى أن هذا الوجودى لا يقيم وزناً لما تعارف الناس على احترامه ، لقد اشمأز من تمسك أمه بأن تدفن دفناً دينياً وقد ضاق ذرعاً بقضاء ليلة إلى جوار جثمانها فراح يقطع الوقت بالثرثرة مع البواب وبالتدخين وهو يتعجل على أى صورة الانتهاء من هذه الطقوس البغيضة ليعود طليقاً إلى أهوائه . . إلى وجوديته . . إلى أنانيته .

* * *

وإنك لتراه فى منتصف القصة حين يجلس إلى صديقه « سالامانو » الذى راح يبدى حزناً شديداً على كلبه الذى يموت فيتحدث سالامانو فى أسى عن هذا الكلب الذى كان له صديقاً ويأسى عليه فى ساعة موته فيصفه بأنه كان طيباً .

وكأنما كان سالامانو يريد أن يسمع كلمة عزاء من هذا الوجودى القاسى مورسو . . ولكن كيف يشعر مورسو بالحزن على كلب وهو الذى لم يحس أى حزن على موت أمه . ! ؟

إن سالامانو يريد أن يستجديه كلمة عزاء وكأنما ظن المسكين أنه إذا مس حديث الموت وذكره بأمه فلربما انفجرت فى قلب مورسو أحاسيس الرثاء على كل من يموت إنساناً كان أو حيواناً ، فيجود على سالامانو بكلمة فانظر إلى مورسو وهو يقول :

« قلت لسالامانو إننى متألم لما حدث لكلبه فشكرنى وقال لى « إن أمك كانت تحبه كثيراً . . وعندما كان يتكلم عنها كان يدعوها « بأمك المسكينة » ولقد أفترض أنى أشعر حتما بشقاء كثير منذ موتها ، فلم أجب بشىء .

* * *

وإننى لأحس بأن أى تعليق قد يقلل من بشاعة الاحتقار الوجودى للأم ولكننا نعود إلى بداية القصة حين انتهت مراسم الجنازة لنرى شيئاً عجيباً يحدث فى اليوم التالى ولما تجف دماء أم مورسو فى قبرها استمع إليه يقول :

كان من الصعب على أن أنهض من سريرى إذ كنت متعباً بسبب ما لقيت بالأمس ، وعندما كنت أحلق ذقنى تساءلت ماذا سأعمل اليوم ؟ ذلك أنه كان قد حصل على يومى أجازة لمناسبة الوفاة وقد قضى اليوم الأول فى مراسم الجنازة وفى اليوم التالى أحس بالرغبة فى اللهو .

«أخذت الترام إلى حمام الميناء وهناك اندمجت فى الجمهور ، وكان هناك شبان كثيرون ووجدت «ماري كاردونا» تستحم وهى فتاة كانت تكتب على الآلة الكاتبة فى مكتبي وكنت قد اشتهيتها فى ذلك الحين وهى أيضاً على ما أظن كانت تشعر بما أشعر. ولكنها تركت العمل بعد قليل ، ولم يتح لنا الوقت ، وفى أثناء الاستحمام ساعدتها على اعتلاء خشبة تساعد على العوم . . وعندئذ لمست ثدييها وكنت لا أزال فى الماء عندما كانت نائمة على بطنها فوق الخشبة فالتفتت نحوى وكان شعرها فى عينيها وهى تضحك فصعدت على الخشبة بجانبها وكان الجو جميلا وبينما كنت أمزح ألقيت برأسى إلى الوراء ووضعته على بطنها فلم تقل شيئاً ، وبقيت هكذا ، وكانت السماء فى عيني وكانت زرقاء مذهبة وكنت أحس ببطن مارى وهو يضطرب تحت قفاى فى لطف ومكثنا وقتاً طويلا على الخشبة ونحن نصف نائمين . وعندما اشتدت حرارة الشمس غاصت فى الماء فتبعتها ولحقت بها ووضعت يدى حول خصرها وعمنا معاً . . وضحكنا معاً .. وعندما لبسنا بدت عليها أمارات الدهشة والحزن ، إذ رأتني أضع فى عنقى رباطا أسود ، وسألت عما إذا كنت فى حداد ؟

فقلت لها ــ إن أمى قد ماتت . .

ولما أرادت أن تعرف تاريخ موتها .

أجبت أمس . .

فرجعت إلى الوراء قليلا . . ولكنها لم تبد أى ملاحظة ، فرغبت فى أن أقول لها ليس الذنب ذنبي » .

* * *

أنظر إلى حديث إنسان وجودى عن أمه التى ماتت بالأمس وإلى التصرفات الوجودية التى تكشف النقاب عن حقيقة هذه الدعوة العجيبة .

لقد كان يود أن يقول لها إن موت أمه ليس ذنبه ، لأنه كان يفضل أن لا يحاط علماً بذلك . فلتمت أو فلتذهب إلى الجحيم دون أن تعطله عن ساعة من ساعات المتعة ، إنه ليس ذنبه أنها قد ماتت بالأمس وأن صديقته التى يشتهيها قد ترى فى ذلك حائلا دون الاستمتاع .

* * *

وعند المساء كانت مارى هى الأخرى وجودية فهو يصف ذلك قائلا « كانت قد نسيت كل شىء فذهبنا إلى السينما وكانت الرواية مضحكة . بين حين وآخر . على الرغم من سخافتها وكانت مارى تضع ساقها على ساقى . وكنت أداعب ثدييها وقرب نهاية الحفلة قبلتها ولكنى أسأت التقبيل ، وعندما

خرجنا أنت معى »

* * *

وهكذا قضى ذلك الوجودى اليوم الثانى لموت أمه ثم يقول عن نفسه ولما استيقظت فى الصباح كانت مارى قد رحلت وتذكرت أننا فى يوم الأحد فضايقنى ذلك ، إذ أننى لا أحب هذا اليوم . . . لماذا لا يحب هذا الوجودى يوم الأحد ؟

لأنه يوم الله . . يوم العبادة . . . يوم الدين .

* * *

وعندئذ تقلبت فى سريرى وتشممت رائحة الملح التى تركها شعر مارى فى الوسادة ونمت حتى العاشرة ثم دخنت بعض السجاير دون أن أغادر السرير حتى الظهر ولم أكن أريد أن أتغذى .عند « سيلست » كعادتى لأنه من غير شك سيوجه إلى أسئلة وأنا لا أحب ذلك .

* * *

كان يخشى أن يسأله عن موت أمه

لقد فسق فى يوم وفاتها . وأغوى فتاة . وكره يوم الأحد لأنه يذكره بالله ، حتى ذكرى أمه كره معها أن يذهب إلى الرجل الذى سيتقدم إليه بكلمات العزاء فيذكره بحزن لا يحسه.

* * *

وتمر شهور . . وشهور . . وتتقدم أحداث قصته مع ماري فيتاح لنا أن نعرف رأى الوجودى فى الزواج . فقد عرفنا نظرته إلى أمه وإلى الله وإلى الأمانة المفروضة فى محافظة الإنسان على الأعراض .

لقد استمرت علاقته بماري . . . إنه يقول :

وفى المساء جاءت ماري تبحث عنى ، وسألتنى عما إذا كنت أريد أن أتزوج منها ؟ فقلت إن هذا لا يهمنى وتستطيع أن تتمه إذا كانت تريد، فرغبت عندئذ أن تعرف ما إذا كنت أحبها فأجبت بمثل ما أجبت به من قبل . وهو أن هذا ليس له معنى وإنى لا شك لا أحبها .

* * *

أنظر إلى حقيقة نظرة الوجودى إلى الجنس الآخر . . إنه يشتهى فقط — أما الزواج فليس له معنى ، فإذا تم أو لم يتم فسيان لأنه لن يلزمه بشيء ، إنه كالمفلس الذى لا يملك شروى نقير ، ويطلب إليه أن يمضى صكاً بمليون جنيه فيفعل ساخراً .

لا يهمه الزواج أو عدمه، ولكنه إجراء يجعل الفتاة تستمر تحت سلطان شهواته إذا كانت تريده ، وهو يعترف لها بأنه لا يشعر نحوها بالحب . لسبب بسيط وهو أن الوجودى لا يعرف ما هو الحب . . ولا يعترف به ويراه ضعفاً لأنه سيشده إلى

تبعات وقيود وقد سبق تحليل الفكرة الوجودية نحو الحب فى فصل سابق وها نحن نرى التطبيق فى القصة ، قصة الغريب الذى ظن أنه مظلوم فى هذا المجتمع ولذلك فهو يعيش غريباً فيه كالمجرم الذى يرى أنه غريب فى مجتمع محصَّن ضد الجريمة .

ولما قال السيد الوجودى مورسو لمارى أنه لا يحبها قالت ولماذا إذن تتزوجنى ؟ فيجيب أنه ليس لذلك أهمية وأننا نستطيع أن نتزوج إن شاءت على أنها هى التى تطلب ذلك فعقبت على ذلك بأن قالت بأن الزواج شىء خطير .. فأجبت .. كلا »

* * *

إنه لا يراه خطيراً على الإطلاق لأنه لن يحس بتبعاته ولن يعترف بعواقبه . إنه مجاملة . أو شىء يحتال باسمه للمتعة إلى الحين الذى يريد أن يتسلل منها حرًّا بأى طريق شاء

* * *

وتستمر القصة حتى نرى مورسو فى ضيافة أحد أصدقائه ويحدثه هذا الصديق بأن أعرابيًّا قد تعارك معه وهو لذلك يريد أن يحمل مسدسه حتى يقتل به ذلك الأعرابى إذا هم أن يدخل معه فى عراك مرة أخرى فيحمل عنه مورسو مسدسه فى يوم قائظ يثير أعصابه فإذا بالضيق يشتد به فيقتل الأعرابى فى

فورة عصبية بلا موجب فى لحظة تسرع واندفاع وعدم تبصر .

وحين يحاكم لا يندم على شىء .

وحين يساق إلى السجن يرى أنه غريب فى عالم مقيد بالتقاليد وحين ينتهى الأمر يردد ما سبق أن أشرنا إليه لقد كنت دائماً على صواب . وسأظل على صواب » .

فحقوق الوالدين، والتنكر للطقوس الدينية والسخرية ممن جاءوا يعزونه ويجاملونه والفسوق الفاجر فى اليوم التالى لوفاة أمه والاعتداء على الأعراض والتهوين من قيمة الروابط الاجتماعية والحياة الزوجية حتى القتل بلا مبرر . .

كل هذا يراه الوجودى « مورسو » صواباً . ذلك لأنه قد مارس وجوده وأطاع الهاتف النفسى فلم يشعر بوطأة القيود الاجتماعية وإنما أحس بزهو تحطيمها ، والتحرر منها ووجد فى ذلك سعادة كالراحة التى يجدها الأجرب حين يحك جلده ويدميه.

والعجيب أنك تقرأ قصة الغريب وهى قصة طويلة يتصارع فيها نشاط أشخاص كثيرين فتعجب من السلبية المطلقة التى تتسم بها كل شخصياتها فلا تجد فرداً واحداً يمارس وجوداً شريفاً من أى زاوية إنسانية فهم بين فاسق أو مخمور لا يفيق أو قواد أو أفاق فإذا قلنا إن المؤلف يرسم شخصيات وجودية

كان لنا العذر حين نقول إن خلو الوجودية من الوصايا هى التى تدعو أفرادها إلى هذا الضلال البعيد ، وحين نقول إن الوجوديين هم أفراد يستهويهم الشذوذ ويجدون فى الخروج عن نظم المجتمع تنفيساً عن كبت شديد .

* * *

ألسنا على حق إذن حين نرى أن الوجودية تتلخص فى طاعة هوى النفس والخضوع لسلطان الغرائز ! ! ؟

ألسنا على حق أيضاً حين ننتهى إلى أن الشيطان نفسه لو أراد أن يضع لأنصاره منهاجاً لما أضاف إلى الوجودية جديداً ؟

إن الجواب الذى قد يدور فى أذهان بعض الوجوديين أن « ألبير كامو » إنما يصور اتجاهاً يريد أن يثبت به أن الحياة تبعث الحيرة والاضطراب إزاء عالم يرى الوجودى أنه خلق بلا حكمة ولا سبب وأنه تيه مطلق على الإنسان أن يحتمل فيه الآلام فى سبيل اكتشاف ذاته . . . إن الوجودية تسد المنافذ التى تأتى منها الأشعة الهادية . . أشعة الدين . . . والعقل .. والاتجاهات الإنسانية.. فما دام الوجودى يسىء الظن بكل هذا ويحطم كل مصابيح الأنوار التى تنير له الطريق فهو سيزعم والصواب ليس فى جانبه أنه غريب فى مجتمع يراه

على حقيقته ضالا بلا حكمة وليست له غاية .

إن الوجودى هو الذى اختار أن يعيش غريباً فى مجتمع متماسك حكيم ، إن الأدب الوجودى يريد أن يثبت دائماً أنه لا خير فى عمل شىء وهذا هو الضلال البعيد .

وبذلك يجد الوجودى مبرراً فى عدم المساهمة فى أى عمل بنائى منظم لأن الإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران إذا وضع يده فى يد المجتمع الذى يشبه عنده البحر تتطاحن أسماكه ويأكل القوى منها الضعيف .

ولذلك كان مورسو الوجودى فى قصة الغريب يصيح بأن آثامه التى مارسها كان فيها على صواب .

ولعله من المفيد أن نذهب مع القصة قليلا فنشهد مورسو ساعة محاكمته لنرى أى عواطف هذه التى تجيش بنفس المقدم على النهاية ؟ أهى عواطف الأسى على ما أنزل بالناس من أذى ورغبة صادقة فى استئناف حياة جديدة ذات طابع جاد ؟

أن هذا ما يحدث غالباً حين يتورط الإنسان فى إثم أو حتى حين يسترسل الإنسان فى عماء عن تقدير الحقائق التى يراها ثم تنقشع الغشاوة عن عينيه .

إن موقف مورسو يوم محاكمته ليعطينا فكرة عن حقيقة

النظرة التى ينظر بها الوجودى إلى الحياة ، وإلى الناس ، وإلى ما قدمت يداه ، إنه يقول كما جاء فى ترجمة الأستاذين السيد عطية محمد ومحمد الإمام للقصة .

* * *

من الشيق أن يسمع الإنسان القوم يتحدثون عنه ولو كان على مقعد اتهام وأستطيع أن أقول إنه فى أثناء مرافعات المدعى والمحامى جرى حديث كثير عنى ، بل لعل هذا الحديث كان أكثر من الحديث عن جريمتى .

ثم يذكر بعض ما جاء على لسان الدفاع ، حتى ينتهى إلى قوله :

... ولم يدهشنى ولم يثر انتباهى إلا بعض أقوال أو حركات أو فقرات خطابية فى مرافعات المدعى وكانت فكرته — إن كنت قد أحسنت الفهم — تقوم على أنى ارتكبت جريمتى مع سبق الإصرار ، ومهما يكن من شىء فقد حاول إثبات ذلك وقال : « لسوف أبرهن على ذلك أيها السادة وأبرهن عليه مرتين : أولا تحت الضوء الواضح للحقائق ، وثانياً تحت الضوء الغامض الذى استمده من دراستى لهذه النفس المجرمة » .

وبناء على هذه الأقوال لخص الأحداث منذ موت أمى ذكر المحكمة بعدم حساسيتى وبجهلى لحقوق أمى وباستحمامى

مع امرأة فى اليوم التالى ، وبالخيانة ورواية فرناندل المزلية ، وأخيراً عودتى بمارى ، وهنا لم أفهمه فى الحال لأنه قال مع « عشيقته » لأنها كانت بالنسبة إلى مارى . . . وبعدئذ تناول قصة ريموند ، فوجدت أن طريقته فى النظر إلى الأحداث لا يعوزها الوضوح إذ كان ما يقوله معقولا لقد كتبت الخطاب متفقاً مع ريموند لكى أجذب إليه عشيقته وأهيئها لمعاملة قاسية مع رجل ذى خلق مشكوك فيه ، وأثرت بالشاطئ خصوم ريموند فجرحوه وعندئذ طلبت مسدسه وعدت وحدى لكى أستخدمه . وقتلت العربى وأنا أنوى ذلك ، وانتظرت لكى أكون متأكداً من أن العملية قد تمت ، ثم أطلقت مرة ثانية أربع رصاصات فى ثبات وتأكيد وبطريقة تعتمد على نوع من التفكير .

ثم قال المدعى . ها أنذا أيها السادة قد رسمت أمامكم خط الحوادث التى قادت هذا الرجل إلى أن يقتل وهو يدرى ما يفعل ، وإنى لألح على هذه النقطة إذ لسنا أمام جريمة قتل عادية أو عمل لم يسبقه تدبير ، وتلابسه ظروف تستطيعون بها أن تخففوا من حدته ، إن هذا الرجل أيها السادة رجل ذكى . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ إنه يعرف كيف يجيب ويعرف

قيمة الكلمات ، وأن المرء لا يستطيع أن يقول انه قد عمل وهو لا يدرى ماذا عمل .

* * *

ويقول مورسو : لقد أصغيت إليه وسمعته يحكم بأنى ذكى، ولكنى لم أفهم جيداً كيف تستطيع صفات رجل عادى أن تصبح أدلة اتهام دامغة ضد متهم ، وعلى هذا فقد كان الذى أدهشنى ولم أصغ إليه قوله . هل عبر على الأقل عن أسفه ؟ كلا أيها السادة ، إنه لم يبد ولا لمرة واحدة خلال التحقيق متأثراً بسبب جريمته الشنيعة .

وفى هذه اللحظة التفت المدعى نحوى وأشار بأصبعه وهو مستمر فى مهاجمتى بشدة دون أن أفهم — فى الواقع — لذلك سبباً . ولا شك أنى لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتراف بأنه على حق ، إذ لم أكن آسف على عملى ، ولكن كان يدهشنى كل هذا الإلحاح فى الهجوم ، ووددت لو أنى حاولت أن أشرح ودياً أنى لم أستطع حقاً أن آسف يوماً على شىء ما ، فقد كنت دائماً مشغولا بما سوف يحدث لى ، فى اليوم أو الغد . ولكنى بالطبع لم أستطع أن أكلم أحداً بهذه اللهجة وأنا فى هذه الحالة التى وضعونى فيها ولم يكن لى الحق فى أن أظهر نفسى

محباً بل وذا نية طيبة ، وحاولت مرة أخرى أن أصغى ، لأن المدعى أخذ يتكلم عن نفسيتى .

كان يقول . . أيها السادة المحلفون : لقد انحنيت على نفسه فلم أجد شيئاً . وقال عنى – إننى فى الحقيقة ليس لى نفس ، بل ولا أى شىء بشرى – وإنى بعيد كل البعد عن أى نوع من المشاعر الإنسانية التى تصون قلب الإنسان . وأضاف . . . ولا شك أننا لا نستطيع أن نلومه على ذلك ، إذ ليس لنا أن نشكو من فقدانه شيئاً لم يكن يستطيع أن يناله يوماً ما ، ولكن عندما تتولى المحكمة الأمور يجب أن يتحول التسامح وهو فضيلة سلبية إلى القصاص . وهو فضيلة أخرى أقل سهولة وأكثر سمواً . . خصوصاً عندما يصبح فراغ القلب الذى تكشف عند هذا الرجل هوة قد يتردى فيها المجتمع ، ثم تكلم بعد ذلك عن موقفى إزاء أمى وأعاد ما قاله فى أثناء المرافعات ، ولكنه كان أكثر استطراداً عندما تكلم عن جريمتى وبالغ فى استطراده حتى إنه قال للمحكمة « إن هذه المحكمة أيها السادة ستنظر غداً أشنع جريمة . قتل أب ، وفى رأيه أن الخيال يتقهقر أمام هذه الجناية المتوحشة . وأنه يجرؤ فيأمل أن عدالة البشر ستحكم فيها بلا ضعف ، ولكنه لا يخشى أن يقول أن الاشمئزاز

الذى تبعثه جريمة قتل الأب فى نفسه أقل من ذلك الاشمئزاز الذى يحسه أمام عدم حساسيتى . وفى رأيه أن الرجل الذى يقتل أمه معنوياً يجب أن ينبذ من المجتمع البشرى كذلك الذى يحمل يداً قاتله إلى من هيأ له الحياة .

* * *

وعندما جلس أعقب ذلك فترة صمت وكنت مذهولا بسبب الحر والدهشة وسعل الرئيس قليلا وسألنى فى صوت خفيض جداً عما إذا كان لدى شىء أقوله ولما كنت أرغب فى الكلام فقد وقفت وقلت فى شىء من الارتجال إنى لم أتعمد قتل العربى . فرد على الرئيس أنى أثبت بذلك الجريمة على نفسى كما أنه يسعده قبل أن يسمع محامى أن أوضح له الدوافع التى أوحت إلى بما اقترفت فقلت سريعاً وأنا أمزج بين الكلمات إلى حدما وأحس بما فى أقوالى من شىء مضحك إن السبب هو الشمس . أعنى أن الشمس هى التى أثارت أعصابى .

فأعقب ذلك ضحكات فى الردهة .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من القصة العجيبة التى تصور حياة إنسان وجودى يظن أنه غريب فى مجتمع لا يفهمه ويرى أن كل ما يفعل إنما هو الصواب وأنه لا يندم على شىء .

نهاية الوجودية

هل الوجودية تحمل أسباب بقائها أم موتها . . ؟ ذلك أن هناك مقاييس يمكن بها معرفة المذاهب أو الدعوات التى تحمل طابع البقاء أو تكون كفقاقيع الصابون ترتفع قليلا فى الهواء ثم تتلاشى .

والوجودية تقوم على أسس منهارة لن تستطيع الصمود طويلا إذ لا يمكن اعتبار الانفصال عند المجتمع والعقل والمثل العليا أسساً صالحة للبقاء لأنها تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الإنسانى .

وهى تدرك أنها ليست صالحة للبقاء ، وقد لا يستطيع الإنسان فى الأعم الأغلب من الظروف أن يستمر وجودياً على هذا الطريق المنحرف أبد الدهر فيظل مخالفاً لتكوينه الروحى والذهنى والوراثى والاجتماعى معادياً لما ارتضته البشرية خلال أجيال من التجارب والمعرفة ، فلن يظل مغمض العينين مستسلماً لعاطفة الذات معتنقاً عقيدة خاطئة بأنه لا منجاة

لروحه إلا بانتزاعها من الضمير العام وإخضاعها لعبودية الأهواء والنزعات الذاتية .

فهو إن عاجلا أو آجلا سيشعر بجفاف الوجودية ومجانبتها لنظم الحياة وأنها ليست فلسفة متفائلة تعمل على تجميل الوجود ، وليست إنسانية على الإطلاق ، ولا يمكن لإنسان أن يعيش حياته كلها عدواً لله وللعقل فى خصومة مع الضمير العالمى ، إننا نعيش فى زمن تزداد فيه قوة الطبقات الصاعدة فى تعاون يقوى ويشتد على مدى الأيام ، ولا بد أن تجرف المخمورين بنشوة كاذبة بما يسمونه زيفاً حرية الاختيار .

لن يستطيع إنسان أن يعيش إلى الأبد فى رعب دائم من الحياة يلتمس المسارب ليهرب منها سيما وأن ما يدعوه اختياراً حرا غير قائم على أى نظم أو مقاييس ثبتت صلاحيتها ، فهى إذن نوع من التخبط

ولما كانت الوجودية تشل يدها عن أن تشد على أيدى الآخرين فهى إذن تعوق أى نضال تقدمى وبذلك يصبح شعارها اللامبالاة أو نوع من التصوف السلبى ، فهى لا تزيد على أن تكون مجموعة تبريرات وهمية لتجسيد وجهات نظر فردية ، وتغليفها بغلالة من القداسة المدعاة ، مع افتقارها

المطلق إلى أى تحديد للغايات والأهداف ، وفرار من كل ما اصطلح الناس على أنه حق وخير وجمال .

* * *

إنها خيانة للمثل العليا والعقل والنظام العام ، ولكل روح كفاحية أو تقدمية وتخدير مقنع للقوى العاملة وإيحاءات جنونية فى وثبات هستيرية من داخل النفس وتصميم أحمق على تنفيذ « اللاشىء » .

إنها ليست دعوة إيجابية لأنها لا تستهدف أهدافاً إيجابية على الإطلاق ولأنها تجعل الناس فى شغل دائم بذاتهم الفردية وتحملهم على الحقد على كل عمل جماعى .

فهى إذن فى مجموعها حركة رجعية مدمرة .

* * *

مصادر البحث

الوجودية	:	هنرى لوفافر
الأسرة الوجودية	:	موحان
شعوذة فلسفية	:	بلتيزر
الوجودية ليست إنسانية	:	كانابا
الفلسفة الوجودية	:	زكريا إبراهيم
الوجودية	:	أنيس منصور
قصة الغريب (لألبير كامو)	:	ترجمة السيدعطية ومحمدالإمام
السلام والإسلام	:	سيد قطب

يناير ١٩٦٠ — الثمن ٥٠ مليما

